صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٩٩٢

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

تصدر كل أسبوعين مؤقتاً

بدل الاشتراك
ـــــص
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة فى الخارج
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد الخامس | القاهرة فى يوم الأربعاء ١٩ ذو القعدة ١٣٥١ — ١٥ مارس ١٩٣٣ | السنة الأولى

بين السوامر والصحف

أسير الجهاد :

بين عشية وضحاها نزل صديقنا الأستاذ محمد توفيق دياب من قصر صاحبة الجلالة الصحافة، الى سجن المجرمين من سلاب الأموال وقتلة الأنفس. لأنه رأى رأياً فى سياسة هذا البلد عن اخلاص وعقيدة لم يقره عليه القانون القائم. وحاولت صاحبة الجلالة أن تعصمه من أمر القضاء بالرحمة، ومن تنفيذ الحكم بالعفو، ومن قسوة التنفيذ بالرجاء. فما رجعت بطائل. وظهر أن جلالة الصحافة كجلالة الحسن: روادف العين، ولا سلطان فى الدين!!

إنا نؤمن بعدالة القضاء كما نؤمن بحكمة القدر: ولكن فى السجن الموحش المظلم فرجة قد ادخرها القانون لضحايا العدل؛ فاذا لم تتسع لأمثال دياب فلن تتسع؟ أن الكاتب الذى يحرق مخه وعصبه ليضيء الطريق لشعبه، ويغذى حيوية قومه بعصارة عقله وقلبه، ولا يبتغى من وراء جهاده غير مرضات وطنه وربه، لجدير باحتمال قسوته اذا قسا، واغتفار زلته اذا زل.

ان خطأ الاجتهاد فى الرأى لا يعتبر جريمة إلا فى اصطلاح القانون الذى تسنه الحكومات له، فاذا ما انسعت الصدور، أو تبدلت الأمور، عاد العمل بالقول المأثور: للمجتهد أجران اذا أصاب، وأجر اذا أخطأ. فاذا كانت جريمة الأستاذ دياب من النوع الذى يحرم هنا ويحل هناك، ويوجب العقوبة اليوم ويقتضى المثوبة غداً، فان شديدا على الضمير

فهرس العدد

طبعت بمطبعة [illegible] ٢٩ شارع المدابغ بالقاهرة

أن يعامل فى سجنه معاملة الجناة والعصاة ، فيعيش فى غير شكله ، ويشتغل فى غير شغله ، ثم يحرم لذة الجسم فلا يستريح ، ومُتعة الروح فلا يقرأ ، وحق المريض فلا يعالج .

درس فى الإمساك :

زار صاحبا الجلالة الايطالية وادبا الحبيب فحلا فى ربوعه حلول السعادة ، ونزلا من أهله منزل الاجلال ، وأفاضا على عاصمته وصعيده غمراً من سراوة الملك ، ونبالة الخلق ، ثم اختصا فقراء الاسكندرية بقرابة الف جنيه على ما روى المقطم ، فكان هذا العطف السامى موضعاً للتفسير والتأويل ، ومثالا لاختلاف العقول فى الاستنباط والتعليل ، فمن قائل إن صاحب الجلالة أراد تعميم الاحسان فى أجناس بنى الانسان ، والاسكندرية شبه دولية ، ومن قائل إنه أراد تخصيصه ، وكثرة الجالية الايطالية ، تتزاحم بوع الاسكندرية . والأمر فى كلتا الحالين مثل فى شرف الغاية ، لأن مبعث التعميم عاطفة الانسانية ، ومبعث التخصيص عاطفة الوطنية .

كلام طرآنى :

ذكرنا فى معرض الكلام عن أسلوب الأستاذ محمد بك مسعود أنه (منذ توفر على محاكاة الأستاذ وحيد فى تحقيق اللغة ، ومباراة شيخ العروبة فى تمحيص التاريخ ، بدت على أسلوبه الصحيح أغراض الغرابة التى تلازم اللغويين ، والاعتداد الذى يساور العلماء)

وهـــذا الكلام كما نرى نزيه القصد برىء الدلالة . ولكن الاستاذ وحيدا وريث العجاج ، وخليفة الزجاج قد طوع لنفسه أن يرد عليه فى الأهرام بهذا الرد فقال :

« جاء فى مقال للاستاذ الكبير المفضال محمد مسعود هذا اللفظ « طرآنى » فقال له كاتب فى صحيفة أغربت فى الكلام إغراب وحيد وشيخ العروبة (يعنى برهان العلم والأدب احمد زكى باشا)

« وإنى أقول للكاتب الذى رأى القارئون عدوته ـــ بفتح العين واسكان الدال ـــ ليس الطرآنى من غرائب الكلام ، ولكنى قولى له أنك تراه من بلاغة اللغة فى كتاب الزمخشرى « أساس البلاغة » الذى قيل فيه : ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع فى عبارات المبدعين . قال الامام الزمخشرى فى أساس البلاغة : رجل طرآنى . وحمام طرآنى . لا يدرى من أين جاء . وكلام طرآنى الخ .

« اجتزى » بقولى لكاتب « ذى عدوه » ماقاله الاعرابى : ليس هـذا بغريب ولكنكم فى الأدب غرباء » .

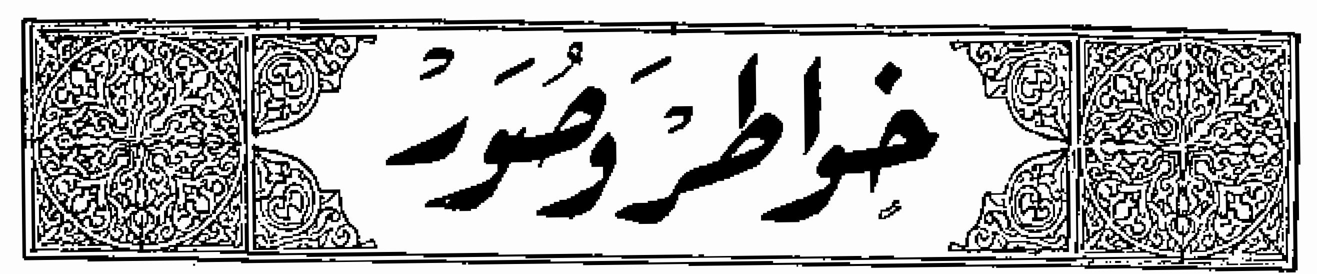
ونحن نقول فى دور نا للاستاذ الجليل : لقد اغربتم فلم نفهم ، وأصحنا فلم تفهموا . فاذا كنا فى الأدب غرباء ، فأنتم فى اللغة دعياء . أليس كذلك ؟

وهذا أيضا !

أخذ صديقنا الأستاذ احمد أمين على بعض كتابنا أنهم اذا تناظروا تخاصموا ، واذا تقدوا تشاتموا ، ونسى أن يقول كذلك إنهم اذا نقدوا تلمسوا أسبابا للنقد تدل على سوء القصد ، وأحدث الأمثلة على ذلك أن الأستاذ (ع . ع) وهو أديب نابه لا يُتهم فى علمه ولا فى فهمه . قد كتب فى البلاغ بمناسبة ضحى الاسلام يقول ما مؤداه : إن أدباءنا قد استمرأوا (مائدة العراق) فهم اذا كتبوا فى الأدب كتبوا عن العراق ، واذا بحثوا فى العلم بحثوا فى العراق ، ثم نعى على صاحب ضحى الاسلام أن يغفل مصر ، وفيها أنشىء الأزهر ، واليها هاجر العلماء . ولو قرأ الأستاذ الكتاب لوجد فيه فصلا عن مدرسة الأسكندرية . بل لو قرأ المقدمة لوجد المؤلف يقول : (عنيت بضحى الاسلام المائة سنة الأولى للعصر العباسى) وفى هذه المائة سنة لم يكن أسس الأزهر ولا سقطت بغداد ! ومن الغريب أن يقول الاستاذ للمؤلف : إن طول النظر مرض ذكرته الاطباء . وهو يعلم أن قصر النظر كطوله سواء بسواء !

العدد الأول من الرسالة

اضطرنا شدة الطلب على هذا العدد أن نعيد طبعه ، وهو يطلب من الادارة رأسا .



المتردد

أعرف رجلا يعيش رخي الصدر آمن السرب في دار بهيجة وأسرة حبيبة ورفقة مخلصين، تلقى ذات يوم كتاباً من صديقين يدعوانه الى رحلة خارج القطر كانت منذ زمن طويل متجمع خاطره ومهوى فؤاده، فوجد من فرصة الفراغ وجمال الربيع ووفاق الخليط مغرياً جديداً بها، ودافعاً شديداً اليها، وكان صديقاه يطلبان جواباً حاسما سريعاً. فوقف الرجل بين الأمرين وقفة المتخير المتحير، لا يدرى أيظل في هذا المكان المحبوب الذى يستبقيه، أم يرحل الى ذلك البلد الجميل الذى يستدعيه؟

بدأ تردده هادئاً مقبولا كهدهدة المهد، ثم مالبث أن عاد مزعجاً مملولا كاضطراب البحر. كان ترجحه بين الاقامة والظعن أشبه بترجح الزورق على الماء الهادئ يدفع الى الأحلام والأوهام. والمتردد واسع الخيال كثير الفروض. فأخذ يقلب الأمرين في خاطره: يوازن بينهما منفردين، ويتمناها مجتمعين. ويطمع أن يدركهما متعاقبين.

أزف الموعد والصديقان ينتظران الجواب إيجاباً أو سلبا. فلابد أن يخرج من عماية هذه الحيرة ليكتب اليهما، جلس جلسة الكاتب وأخذ أهبته للكتابة. ولكنه لم يكد يقر على الصحيفة يده حتى ساوره الشك فأمسك! وأخذ فكره يتنقل بين المكانين، ويفاضل بين المغنيين، حتى انتهى به التردد الى ايثار البقاء.

آثر البقاء لأن الصديقين ربطاه بعدة خفيفة، لا بكلمة ربيقة، ولأن في المتردد جرثومة من جراثيم الكسل: المترددون أميل الى الكف والاحجام، دون العمل والاقدام.

ذلك الى أن مخيلته الخصيبة قد أبتت له من الذرائع والأسباب ماوافق هواه: كيف يصدف عن مسرة هادئة أكيدة، الى أخرى جديدة غير أكيدة؟ انهم يمتدحون ذلك البلد لطيب هوائه وجمال مناظره، ولم يعلموا أن في الرحلة اليه والحلول فيه اضرارا تخاف وتحذر! أين يجد ما يعدل زوجته العزيزة وداره الجميلة وحديقته البهيجة؟ لقد أصبحت هذه الثلاث أجمل في نظره وأجمع لخيره منها قبل ذلك!

أليس من الحمق والجحود أن يغمط الانسان مثل هذه السعادة؟ على أن هذا البلد بعيد الشقة، ولابد للراحل اليه أن يبيت ليلة في القطار على فراش لا وثير ولا وطىء، أو يعبر البحر متعرضاً لدُواره وأخطاره. واذا أصابه مرض في الطريق أو في الفندق فماذا تكون عاقبة أمره؟ ذلك فضلا عن الغذاء الدنىء والمسكن الوبىء والعناء المبرّح.

أجمع صديقنا في الأمر رأيه، ووطن على البقاء نفسه. فكتب الكتاب بالرفض ودفعه الى الخادم ليحمله الى مكتب البريد القريب، ولكن الخادم لم يكد ينطلق بالكتاب حتى تحرك الشك في نفسه. وتغير المنظر الماضي في عينه. فكأنما سحر ناظره. أو تبدلت مشاعره!

ذلك البلد الذى استخف به منذ قليل تجلى لعينيه في صورة جذابة أنيقة. وتلك الأحاديث العجيبة التي سمعها عنه تواردت على ذهنه تباعا منمقة الحواشي بسحر جمال المفقود، وحب استطلاع المجهول. ثم تمثلت أمام عينيه فوائد تلك الرحلة وملذاتها. فعاد باللائمة على نفسه! كيف عميت بصيرته عن هذه المنافع جماء؟ وكيف اعتاقه عن هذا الأمر مئونة الانفاق والنصب؟ إن متاعب السفر هي الصحة والقوة والحياة! ولا شيء أذهب للعمر وأقتل للمرء من أن يظل قعيد بيته مخلداً الى عيشة رغيدة وادعة، وحياة متشابهة مملة، تلك فرصة ما يحسب الدهر بمثلها يجود!

رحلة ممتعة مفيدة! وإخوان صدق ملئوا ظرفا وعلما! ان ذلك الرفض ضرب من البله والجبن!

تحول ذلك التوبيخ أسى وحسرة. وبلغ به الحنق والشوق والخجل حد الهياج والقلق. فأهوى بيده الى الجرس، وصاح بأحد الخدم أن يرد عليه الكتاب وحامله. فقال له: أن الخادم ياسيدى انصرف الى وجهه منذ ربع ساعة!

فارتد الرجل كاسفا حزينا، وانقلب ماحوله مظلما قبيحا، واستولى الضجر على نفسه، وأصبح بيته الجميل الرحب أضيق فى عينيه من كفة الحابل، ثم مالبث أن عاد الى نفسه وأخذ يفكر فى جواب الخادم، فقرر أن المسافة الى مكتب البريد يقطعها الخادم راجلا فى ربع الساعة، فاذا قطعها هو على سيارة استطاع أن يوافيه قبل أن يضع الكتاب فى صندوق البريد.

وما هو إلا رجع البصر حتى انطلقت به السيارة يشق صوتها المزعج زحام الطريق! ولكنه لم يضع قدمه على عتبة البريد حتى كان الخادم خارجا منه وقد أنجز عمله! . بهت صديقنا وكاد يستسلم لليأس لولا أنمر ذكر التلغراف على خاطره، فبرقت أساريره وقال: إن الرسالة البرقية تصل قبل الكتاب فتنسخه. ثم أخذ طريقه الى مكتب التلغراف وبدأ يكتب الرسالة، ولكنه ما بلغ الكلمة الرابعة حتى جمدت يده على الورقة! قال فى نفسه: إن الرسالة البرقية كالكلمة الملفوظة اذا قيلت فلن تسترجع، وسأكون بها مقيدا مأخوذا. إلق القلم وخرج من المكتب يتنسم الهواء! واخذ يمشى أمام الباب ذهابا وجيئة وهو يسائل نفسه: أيكتب أم لا يكتب؟

دقت الساعة دقتين فارتعد وقال: مالى أتردد؟ يجب أن أقطع الرأى، فان الوقت وإن طال لا يسع المطال. ثم فكر وقدر، فجاء برأى خليط مبهم لم يلبث أن نزل عنه، وظل واقفا يتصفح وجوه الآراء ليرى الرأى القاطع نصف ساعة كان فيها فريسة الهم والضجر!

إستقبح من نفسه هذا الضعف الشديد، فاقتحم المكتب، وأتم الرسالة ودفعها الى العامل وهو يقول فى نفسه: سأتبعها بأخرى اذا بدت لى فى الأمر بداءة.

ثم انكفأ راجعا الى بيته يتسعد ويتأهب! وأقسم أن منظر ذلك البيت الذى يريد أن يفارقه غدا سيحى فى مخيلته صورة رائعة الجمال شديدة السحر. وان زوجه وكتبه وأزهاره وأشجاره ستملك عليه وجدانه. فلا يمنعه الخجل أن يصبح نا كثا ما أمّر وناقضا ما أبرم!

لعل فى القراء من يحمل وصف هذا الرجل على المبالغة، ولكنى أؤكد لهم أن مكانه من الصدق مكان صورته الشمسية.

ان التردد مرض من الأمراض لا يؤبه له لندرته. يصيب المرء فى حياته العملية، فيغل يده، ويشل عقله، ويتركه فريسة للالم من ضعفه، والخجل من صحبه. تظهر أعراضه فى صغار الامور وكبارها، فيكون فى انتقاء الثوب، واختيار الحالة، وفى الاقدام على الزيارة القصيرة، والرحلة الطويلة، ويدخل فى لذاذات الرجل وأعماله، كما يدخل فى إدباره وإقباله.

* * *

جرت بين هذا الصديق نفسه وبين زوجه هذه المحاورة منذ اسبوع، فأنا أنقلها اليك بنصها لتزداد به معرفة.

قال وهو يهم بالخروج إلى مكان عمله:

— زينب! أتشيرين على بأن آخذ مظلتى؟

— افعل ياعلى ماتشاء.

— أتظنين أن السماء تمطرنا اليوم؟

— وما يدرينى؟

— آخذها والسلام!

— حسناً تفعل.

— ولكنها تضايقنى إذا لم تمطر السماء.

— دعها اذن!

— ولكن المطر اذا نزل بلل طربوشى وثوبى.

— خذها إذن!

— ماهذه الحالة؟ وما هذا التردد بين الأمر والنهى؟ ليس للمشير إلا رأى واحد! فهل ترين أنى أحسن اذا أخذتها؟

— نعم!

— سآخذها إذن.

— ولكن الهواء داق، والسماء مصحية، وأخشى إذا دام الجو كذلك أن أذهل عنها فأفقدها؛ سأتركها قطعاً!

ثم سار يريد الخروج فلمحها معلقة على المشجب فأخذها وهبط السلم ذاهلا، متباطئاً، حتى بلغ البواب فدفعها اليه.

أحمد حسن الزيات

مسارح الأذهان

تراثنا القديم

للأستاذ احمد أمين

خبران أثرا فى النفس أبلغ التأثير . وآثارا فى القلب كوامن الأسى والأسف .

أولهما أن أديبا كبيرا ، وخطيبا خطيرا طلب من احدى المكاتب القاموس المحيط للفيروزابادى ، فأرسلته اليه ، فاستبقاه اياما ثم رده شاكرا ، لانه لم يستطع أن يعرف طريقة الكشف فيه ، واذا استطاع فلا يفهم مايقول ، ولا يتبين مايشرح . لذلك يعتذر عن شرائه ويطلب بدلا منه معجما من المعاجم الحديثة ، كأقرب الموارد ومحيط المحيط والبستان ، لسهولة الكشف فيها ، ووضوح القصد من معانيها .

والثانى أن مجلسا من مجالس المديريات قرر انشاء مكتبة يتردد اليها طلبة المديرية ومثقفوها ، وعهد الى بعض رجاله اختيار الكتب الصالحة ، فلم يختر فيما اختار كتابا قديما كالقاموس المحيط ولسان العرب وتاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير والأغانى والعقد الفريد ونفح الطيب ، وانما قصر اختياره على ما أنتجه الأدباء المحدثون من روايات وقصص وتاريخ حديث ، وأدب من الوزن الخفيف .

راعنى مافى هذين الخبرين من دلائل مؤلمة : وما يحملان من نتائج خطيرة ؛ اذ دلالة الخبرين أن تيار الفكر إنما يسير نحو الثقافة العصرية ؛ وان المثقفين انما يعتمدون على ماتخرجه المطابع من آثار الثقافات الأجنبية ، فاما تراثنا القديم ومافيه من ثراء ضخم فتنبو عنه أذواق الناشئة ومن يقودهم ويختارلهم . ولا يقبل عليه الا المستشرقون وأمثالهم من علماء قليلين يسيرون نحو الفناء ، دون أن يخلف من بعدهم خلف يقوم على هذا التراث فيحفظه ويستثمره .

ولهذه الظاهرة أسباب أهمها :

أن هذه الكتب جارت عصرها ولم تجار عصرنا ؛ فالتعبير معقد ، والمعنى غامض ، والتأليف مشتت ، والمصطلحات جامدة ، والأمثلة واحدة فقطع هذا كله الصلة بين القديم والحديث ، ولم يستطع أن يتفهم هذه الكتب القديمة الا من نشأ عليها ، وانفق أكثر العمر فى فهم عباراتها ، وحل معمياتها . وكثير منهم وقف عند ألفاظها ومصطلحاتها ، ولم يسعفه الزمان بالتغلغل فى أعماقها واكتناه أسرارها واستخراج كنوزها . فلما نشأ الجيل الجديد وقد تعلم أول أمره فى رياض الأطفال ، وأسلمته هذه الى مدارس ابتدائية وثانوية يجتهد مدرسوها أن يعلموا على أحدث طرق البيداجوجيا ، ويقرأ تلاميذها فى كتب ألفت على غرار الكتب الأوربية فى الشكل والموضوع ، أصبح الخريجون لا يربطون جديدهم بقديم آبائهم ، وصارت الكتب الأوربية أشهى الى نفوسهم وأقرب الى عقولهم من كتب الأدب العربى والفلسفة الاسلامية ، وكتب القانون الفرنسى أحب اليهم من كتب الفقه الاسلامى وهكذا . وهم اذا نظروا فى هذه الكتب العربية هزئوا بها وضحكوا منها ! فاذا وقع نظرهم فى الفقه على تحديد ماء الطهارة بأنه عشر فى عشر بذراع الكرباس ، قالوا ما لنا ولذراع الكرباس؟ إنما نعرف الذراع البلدى والذراع المعمارى ، واذا رأوا نظام أخذ العشر قالوا ماذا يقابل ذلك من نظام الضرائب والجمارك ؟ وإذا نظر الأطباء فى كتاب القانون لابن سينا وقفوا امام أحاجى لاطاقة لهم بها ، واذا نظر الأدباء فى الأغانى والعقد وأمثالها رأوا شرا كثيرا وخيرا قليلا ! وكان مافهموا أكثر مما لم يفهموا .

الحق أن هذه مشكلة كبيرة تحتاج فى علاجها الى مهرة الحكماء ، وأن مافى كتب أسلافنا من ثروة يحتاج الى عقول كبيرة تضع منهجا قويما للاستفادة منها .

ونحن بين اثنتين : اما أن تتخصص منا طائفة صالحة لترجمة ثروتنا القديمة الى لغة العصر وروح العصر وأسلوب العصر ، فيستطيع ناشئتنا أن يضعوا أيديهم على تراث آبائهم ، واما أن يتثقف أكبر عدد ممكن بنوع من الثقافة الشرقية القديمة ، فضلا عما عندهم من الثقافة الحديثة ، فيجمعوا الى مواردهم الأجنبية الموارد العربية ، ويخرج نتاجهم متشعا بالروحين ، مستمدا من الثقافتين .

فان لم يكن هذا ولا ذاك خشيت بعد قليل أن تصبح كتبنا القديمة غير صالحة الا للأرضة تعيث فيها والعنكبوت ينسج عليها ، ويكون شأننا معها كما قال أبو العلاء :

سيسأل قوم ما الحجيج ومكة ... كما قال قوم ما جديس وطسم

اسكندر يقتل صديقه!

للدكتور عبد الوهاب عزام

اسكندر العظيم يثبت عرشه وسلطانه وهيبته وكبرياءه في مقدونية واليونان، ثم يتوجه تلقاء آسيا.

الفريقان من اليونان والفرس يلتقيان على نهر (كرانيكوس) الصغير عام أربع وثلاثين وثلاثمائة. فيتاح لاسكندر أول فتح في آسيا، وتخضع له المدائن حتى سرديس. فقد دانت له آسيا الصغرى كلها.

ثم يتقدم صوب الجنوب، فيجتاز طوروس ويسير تلقاء الشام. وإذا جيش دارا، الجيش اللهام الذي لا يغلب من قلة رابض في طريقه. وفي سهل إسوس الضيق بين الجبال والبحر تزدحم مئات الألوف في المعترك، ويسقط في المعارك مائة ألف من الفرس، ويفر دارا وينهب معسكره، وتؤسر أمه وزوجه وابنتاه. فانظر اسكندر قد قهر الملك الأعظم، ملك الفرس الذين طالما فخر اليونان بأنهم احتملوا صدمتهم، وردوهم عن بلادهم!!

يتقدم الفاتح العظيم فيقهر مدن الشام، وتقاومه صور وتتحدى جبروته وسلطانه. ثم تخر أمامه بعد حصار سبعة أشهر، فيقتل منهم ثمانية آلاف، ويؤسر ثلاثون ألفا يباعون عبيدا. ويصلب على القلاع ألفان عبرة ونكالا! ذلكم اسكندر الفاتح العظيم، وذلكم جزاء من يقف في سبيله!

ويفتح اسكندر مصر عام اثنتين وثلاثين وثلاثمائة. ويرفع نسبه الى أمون. ثم يجمع جنده ويسير الى العدو الأكبر الملك الأعظم. يجتاز الفرات ودجلة الى حيث يعسكر دارا. وهنالكم على مقربة من أطلال نينوى العظيمة التي تندب مجد آشور الغابر، وعلى سبعين ميلا الى الشمال والغرب من مدينة اربيل، ليس بعيدا من ملتقى عبد الله بن علي العباسي، ومروان بن محمد خاتمة الخلفاء الأمويين، حيث سقطت دولة وقامت دولة! هنالكم تراءى الجمعان، وعسكر اسكندر تجاه دارا.

ويشير (برمينيو) على الفاتح المقدوني أن يهاجم عدوه ليلا، فيأبى مجد اسكندر وكبرياؤه، فيقول له: أنا لا أسرق النصر. ثم يلتقي الجمعان. وتدور الدائرة على دارا، وجنوده، فيفر صوب المشرق. ارأيت بابل العظيمة مدينة السحر والعلم؟ ها هي تفتح أبوابها لاسكندر ويباركه كهنتها. ويطوي الملك الشاب المراحل الى سوس واصطخر حاضرتي الفرس. لا يصمد لمدينة الا فتحها، ولا يعمد لجيش الا مزقه.

تمتد الفتوح والآمال والنشوة والكبرياء باسكندر الى ما وراء النهر في طريقه شطر الهند، بعد أن طارد دارا حتى عثر به في الطريق قتيلا.

اسكندر العظيم في مدينة سمرقند عام سبع وعشرين وثلاثمائة. قد طوى المراحل والممالك ما بين مقدونية ونهر سيحون. ينعم هنالك بالشباب والظفر والملك الفسيح، والكنوز التي لا تحصى، والجند الذي لا يعد. اسكندر الآن أعظم ملك في العالم كله!

* * *

ويدعو أصحابه وقواده الى مأدبة في سمرقند، فيأكلون ثم تدور الكأس حتى يثمل القوم أو يكادون، ثم تترع للملك المظفر كؤوس من الاطراء والاعجاب والاجلال والاكبار. ويغلو المتملقون المعجبون فيرفعونه فوق الأبطال جميعا. ويدعون أن أعماله المعجزة لا تكون الا عن نسب آلهي، بل يرفعونه الى مستوى الآلهة كهرقل. ويشارك الملك الشاب في اعظام مآثره والاعجاب بها، ثم لا يقنع بما يعل، فيجعل لنفسه ما نال أبوه من ظفر في آخر عهده. ويغض من فيليب وان كان أباه!

يسخط المقدونيون من الزراية بطلهم القديم. ولكنهم لا ينسون. و(كليتوس) رابض ينظر الى اسكندر ومادحيه ساخطا محنقا. كليتوس أحد قائدي الفرسان، كليتوس الصديق القديم أخو (لانيس) حاضنة اسكندر التي قتل اثنان من أبنائها تحت رايته، كليتوس الذي نجى اسكندر في معركة كرانيكوس

حين أبصر أحد الفرس يهوى بسيفه الى الملك من خلفه فسارع كالبرق فضرب السيف فقده دون رأس الملك . كليتوس هذا لم يسطع صبرا على الغض من فيليب ! قال كليتوس: ما لهؤلاء المادحين يضعون أقدار الغابرين ليرفعوا عليها مجد الحاضرين ؟ ان فيليب كان عظيما ! — ثم تأخذه الحدة فيقول: ليست مآثره دون مآثر ابنه ! لا . ان مآثره لأعظم . فقد خلق الرجل لنفسه ملكا وجيشا . وانما صلت أيها الملك بما أورثك فيليب من ملك ممهد وجند مدرب . انما ظفرت بفضل هؤلاء المقدونيين الذين تحقرهم اليوم وتقدم الفرس عليهم . ألم تقتل برمنيون العظيم ؟

هاج الحاضرون وقذفوا كليتوس بالجدل والتوبيخ . وثار ثائر اسكندر الفتى الفاتح الذى سخر ملك مصر وبابل وأشور وفارس ، اذ قرعت أذنه لأول مرة نبأة ناقد يعترض كلامه ويرد عليه دعواه . غضب اسكندر وصاح بكليتوس يزجره ويجادله ، وانحاز الحاضرون للملك المعجب بنفسه ، وكليتوس كالأسد يزمجر ويرد الكلمة بمثلها ، ثم ينتفض قائما ويصيح مادا يده الى الملك : « اذكر أن حياتك دين لهذه اليد التى نجتك يوم كرانيكوس ! وأصغ لصوت الحق الصراح ، أو تجنب دعوة الأحرار الى مأدبتك ، واختص العبيد بصحبتك !

اهتاج اسكندر لموقف كليتوس ولذكرى كرانيكوس وبرمنيون ، فنهض يتحسس خنجره ، فاذا الخنجر بعيد قد نحاه أحد الحاضرين . فينادى الحرس مغضبا هائجا ويأمر أن ينفخ فى الصور ايذانا للجند ، فما اطاع أحد أمر الملك الهائج النشوان ، وتقدم نحوه بطليموس (وبردكاس) القائدان الكبيران فأحاطا به وأمسكا يده برفق يسكنان ثورته ، ويكسران حدته ، ويحيط آخرون بكليتوس يخرجونه من البهو ، فيأبى أن يخرج فيعترف بأنه أساء واعتدى . ويقول اسكندر : « وا أسفا ! إن قوادى قد غلونى كما فعل بسوس بدارا . وأما لى من الملك اسمه . ويتقدم اسكندر تلقاء كليتوس ، ولا يجرؤ القواد أن يقفوه قسرا ، ثم ينقض كالصاعقة فينتزع حربة من أحد الجند فيغمدها فى صدر كليتوس الصديق القديم !

يرتاع الحاضرون . ويفيق اسكندر من نشوته وثورته وعنجهيته . فيفتح عينيه فاذا كليتوس طريح يضطرب فى دمه .

خرج اسكندر من البهو يعدو الى فراشه ، فارتمى عليه ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب ، يبكى بدموع عزت على الخطوب الشداد ، وغلت فى الحوادث السود . ويتمادى به البكاء ، وكلما كفكف دمعه تمثل له صديقه طعينا بيده . ويلعن نفسه نادما . ويهتف باسم كليتوس وأخته لانيس . ثم يقول : ويلى ! أنا الغادر الكنود . لقد جزيت كليتوس ولانيس شرا بما أحسنا الى . لست بعد اليوم جديرا بالحياة .

ويجتمع اليه صحبه يعزونه ، ويسوغون ما عمل . فلا يزداد الا حزنا واكتئابا وندما وأسفا . ويجتمع الجند المقدونيون فيجمعون على أن كليتوس قتل بحقه . وأنه ينبغى ألا يدفن . فيغضب اسكندر ويقول : كلا ! انه سيدفن بأمرى . ويأتى الكهنة فيقولون : ان الملك لم يقتل صديقه بيده ، ولكنها نقمة من الاله (ديونسوس) أجراها على يد الملك انتقاما لنفسه بما حرم القربان فى هذه المأدبة . ثم يأتى الفيلسوف (أنكسرخوس) فيقول : ايها الملك ان الذى أنت فيه لعجز . وانك أيها الملك العظيم والفاتح القاهر لجدير بأن تحل وتحرم وتحق وتبطل بارادتك لا أن تخضع للقوانين التى سنها الناس . ثم يأتى كلستنوس الفيلسوف فيجهد أن يهون على الاسكندر ما فعل .

فارق اسكندر مضجعه بقلب كليم اجابة لنصحائه وإجابة لواجبه فى هذه البلاد النائية . ولكنى أحسب الجرح قد ذهب مع اسكندر الى قبره !

اسكندر العظيم لم يعظم عليه مطلب ، ولا بعدت على همته غاية ، ولا ثبتت فى طريقه دولة ، ولا وهن قلبه فى سلم ولا حرب ، ولكن اسكندر الفاتح القاهر ، والملك المسلط ، لم يحتمل وخزة واحدة من وخزات الضمير ، فخر كالطفل يبكى ويتململ . وكاد يبخع نفسه فرارا من الندم !

ان عذاب الضمير هو العذاب الأكبر ، ولكن لا يعرفه الا ذوو الضمائر ، وقليل ماهم !

لله در كليتوس ! لقد ذهب مثلا فى الوفاء ، واين فى الدنيا الأوفياء ؟

ولله در كليتوس صريع الوفاء ! ولله در اسكندر صريع الوجدان !

مجمع البحور وملتقى الأوزان

للدكتور محمد عوض محمد

يحسن بنا . كلما دخل الأدب العربي طور جديد . أو ظهرت فيه نزعة جديدة . أن نقف لحظة لنحقق أمر هذا الطور الجديد . وهذا المنهج الذي يريد بعض الأدباء أن ينتهجه . وطبيعي أن الكائن الحي يجب أن يكون في تبدل أبدا وفي تحول . لكن يجمل بنا من آن لآن أن نقف قليلا لنحلل هذه الاتجاهات الجديدة . لكي نكون على بصيرة من أمرنا ، ولكي نمشي على علم وهدى . فإن بعض السبل الجديدة يؤدي إلى الخير . وبعضها لا يفضي إلى شيء .

وقد ظهر في عصرنا هذا ضرب جديد من الشعر . لم يعرفه الأوائل ولا الأواخر . ولا نعرف في شعراء الشرق من عرب وترك وفرس من نحا هذا النحو . ولا في شعراء الغرب في الأدب الإنكليزي والفرنسي والألماني . من له شأن وخطر . من سلك هذا السبيل . وإن كان بين قراء (الرسالة) من يعرف شاعرا ذا شأن طرق هذا الباب من قبل . فقد يسرنا أن نعلم عنه ما جهلناه

أما هذا الضرب من القريض — وقد سميناه مجمع البحور — فإنه يسوغ للشاعر في المنظومة الواحدة والموضوع الواحد . أن يجمع بين ما شاء من بحور الشعر . بلا قيد ولا شرط : فينتقل كما شاء وشاء له الهوى من وزن إلى وزن بلا سبب ظاهر . وبدون أية قاعدة مفهومة أو غير مفهومة . فيبدأ منظومة بالخفيف مثلا . ويمضي فيه إلى بيتين أو إلى أبيات . ثم يعرج على البسيط فينظم فيه أيضا بيتين أو ثلاثة . ثم يميل فجأة إلى الرمل ثم إلى الكامل . وهكذا لا يزال ينتقل من بحر إلى بحر . ويثب من وزن إلى وزن . والمنظومة واحدة والموضوع واحد .

ليس من شك في أن هذا الضرب من الشعر جديد . ولو أن المتنبي . وهو الأمر الناهي في مملكة القريض . قيل له إن فلانا ينظم القصيدة الواحدة فيجعلها من بحور شتى . لقال لمحدثه : « ياهذا إن شاعرك مثله كمثل الطاهي الذي يخلط الحلو بالحامض . والمائع بالجامد . والرطب باليابس . والصاب بالشهد : ثم يرجو بعد هذا أن يكون فيما طهاه شفاء وغذاء . »

٭

مفهوم أن يكره الإنسان التقيد بالقيود من أي نوع كانت . والنفس تثور من آن لآن . تحاول تحطيم السلاسل التي تقيدها وتمنعها من ارتياد منهل الحرية عذبا نميرا . وقد رأينا منذ زمن كيف ابدع بعض الشعراء نظم القريض مرسلا . من غير قافية ثابتة : لكن مع الاحتفاظ بالوزن . وكان لهذا الضرب من القريض أنصاره . الذين نادوا في الناس بأنه سيرقى بالشعر العربي إلى سماء ما طاولها سماء . ثم لم تلبث تلك النار أن باخت . وتلك الأصوات أن خفتت . وأصبحنا اليوم وأكثر الأدباء متفق على أن إرسال القافية لا يلائم الشعر العربي : فلم نكد نسمع بتلك الحرية حينا حتى عدنا بأنفسنا طائعين إلى حمل السلاسل والأغلال . مضحين بتلك الحرية المروضة التي لم تنتج لنا إلا كل فاتر تمجه النفس .

ثم جاءت بعد هذا بدعة أكبر وأخطر . وهي بدعة (مجمع البحور) التي وصفناها . ومما يؤسف له أن يكون شاعر من أجل الشعراء شأنا وهو . شوقي . على ما به من قدرة ومكانة . وهو الشاعر ذو النفس الطويل . الذي ما كان يعييه أن ينظم فيطيل ما شاء الإطالة . وهو الذي نظم (صدى الحرب) و (مقدونيا) و (نهج البردة) . أنه برغم هذا رأى ألا يلتزم وزنا واحدا في رواياته التي كتبها أخيرا . فأحيانا كان شخص من أشخاص الرواية يسأل السؤال في وزن . فيرد عليه بوزن آخر . وكثيرا ما ينتقل المتكلم إلى وزن جديد . وموضوع الحديث لم يتغير .

لقد قيل ان لشوقي في ذلك أسوة بكبار الشعراء الروائيين أو القصصيين . . وهذا ليس بصحيح . فإن جميع روايات شكسبير من وزن واحد وهو المسمى Iambic Pentameter وملحمتا هوميروس كلتاهما من بحر واحد . والفردوس الضائع لملتون كلها من وزن واحد . والشاهنامه والمثنوي كلتا ذات وزن واحد . وبرغم ما قيل وما يقال عن روايات شوقي . فإن كثيرا من الناس يقر بأن هذا الإكثار من الأوزان قد أفقدها قسطا كبيرا من الحسن .

ونحن نسوق هنا على سبيل المثال قطعة من (قمبيز) وهي الرواية التي تفوق صواحبها في هذا الأمر .

جاء في المنظر الأول من الفصل الأول الحوار الآتي بين تاسو وعمها فرعون (أمازيس) :

تاسو : تغريت بأبي المسير هبل مكانا منك يا أمازيس

فرعون : أنت التي تذهبين

تاسو : لم لا ؟

فرعون : هذا هو النبل يا تاسو (١)

ع ع بنت أخي (٢)

تاسو (في استنكار) : أنت يا قاتل عمي

لا . أبي بأبي وأمي (٣)

في هذا الحوار القصير الذي يتألف من ثلاثة أبيات ومصراع

واحد . ثلاثة أوزان (١) مخلع البسيط ومنه البيتان الأولان (٢) ومجزوء الرجز ومنه المصراع الذي يليهما . (٣) ثم مجزوء الرمل ومنه المصرعان الأخيران .

وقد يرى بعض الناس أن من الفنون الجريئة أن يكون أحد المصراعين في البيت الواحد والثاني من بحر آخر . ولكن في الحق أن هذا هو التطور الطبيعي لمجمع البحور . فاذا كان مستحسنا أن يغير الانسان الوزن بعد بيتين أو ثلاثة . فليس هناك معنى لأن يمتنع المرء عن تغييره في كل مصراع . بل وفي أقل من مصراع وقد فعل ذلك أحد الأفاضل في الجزء الثالث من (ابولو) في قصيدة من هذا النوع عنوانها (الشراع) جاء فيها :

وانتزع عنك كساء الليل ثوبا : (رمل)
شجيا (؟)
تحتك اللجة السحيقة تدوي (خفيف)
فوقك اللانهاية الابدية («)
وأمامك الأفق البعيد يضلل (كامل)

والقارىء الذي يهمه هذا الضرب من الشعر يجب أن يرجع الى هذه القصيدة لأنها خير مثال له بين أيدينا . ولولا ضيق المقام لمثلنا بكثير من أبياتها .

وقد جاء في العدد الرابع من الرسالة منظومة للشاعر الفاضل ايليا أبو ماضي عنوانها الشاعر والسلطان الجائر . وقد أعجبنا ما فيها من خيال بديع . وكان افتتاحها بنوع خاص منبئاً بأن المنظومة من الدرر الغوالي . الا أن هذه الدرر كانت ذات نظام مختلط إذ جعل الشاعر يغير من وزنها ست مرات أو سبعا . فلا تكاد الأذن تطمئن الى نغمة . حتى يستبدل بها نغمة تخالفها وتغايرها . والذين اكتفوا بقراءة القطعة الأولى حكموا بأن القصيدة من أحسن الشعر . وأما الذين قرأوها الى النهاية فقد أسف كثير منهم على أن الشاعر قد أفقد المنظومة حسنها لهذا الاضطراب في النظم : لأن لكل بحر أثرا خاصا في النفس . وهذا التقلب السريع مما يزعج الخاطر . وينفر الأسماع .

لسنا بحاجة لأن نسرد للقارىء أمثلة أخرى ندل بها على هذه الظاهرة الجديدة . التي بدت في كتابات بعض الشعراء . وليس من شك في أن (مجمع البحور) هذا سيكون شأنه شأن الشعر المرسل . سينادي به بعض الكتاب حينا . وقد يستفحل أمره زمنا ما . ثم لا يلبث أن تخمد جذوته . ويذهب كما ذهب أخ له من قبل ؟

فلسفة برجسون

للأستاذ زكي نجيب محمود

ثورة على المادة

كان مبدأ التفكير الانساني بدراسة نفسه . ثم ينتهي الى إحدى نتيجتين : فهو اما أن يقتنع بحدس في تلك المظاهر المادية التي تخضع للقوانين الآلية الصارمة . ثم ينصرف بناء على ذلك الى دراسة الوجود المادي بما فيه من صور وأوضاع : واما أن ينتهي الى انكار ذلك الوجود المادي جملة وتفصيلا . واعتباره من خلق العقل وتكوينه . ثم يتجه على هذا الأساس الى دراسة العقل وحده . لأن في دراسته دراسة للوجود بأسره . مادام ذلك هو الذي خلق هذا خلقا . وأنشأه انشاء .

اذاً فقد انقسم الفلاسفة قسمين مختلفين : فريق ينصرف بأسره الى العلوم الطبيعية لأنها السبيل الى تفهم مظاهر الكون . وفريق ينكب على دراسة النفس انكبابا . لأنها هي كل شيء . ونحن نستطيع أن نقول في شيء من الدقة ان تاريخ الفلسفة الحديثة ينحصر في هذا العراك العنيف القائم بين علم النفس والعلوم الطبيعية . فهذه تنشد الحقيقة في دراسة الظواهر المادية . وقد ترى في طريقها من بوارق الأمل الباسم ما تمضي معه في ثبات اليقين موطدة العزيمة . وذلك يلتمسها في دراسة النفس دون المادة وهو مؤمن أن ليس أقوم من تلك السبيل سبيل

ولكن جاء القرن التاسع عشر . فانعرج ذلك المجرى الفكري بعض الشيء . واتجه الى دراسة المظاهر المادية اتجاها مباشراً . دون الوقوف على هذه النفس الانسانية وقفة تحليلية . ولعل ذلك راجع الى ان الانسان قد خيل اليه ان العلوم الرياضية والميكانيكية وما اليها . هي التي دفعت به في العصر الحديث هذا الدفع السريع . وله عذره في هذا الظن . مادامت الصناعة التي تدوي ارجاؤها في أوربا . والتي قلبت الحياة رأسا على عقب . هي ربيبة تلك العلوم . . . اذا فلماذا لا تدرس هذه العلوم الطبيعية دون سواها ؟ هكذا اصطبغت الفلسفة في القرن الماضي بصبغة مادية . وذهبت في الفضاء صيحة ديكارت التي الح بها في أن تبدأ الفلسفة سيرها من النفس ثم تتابع طريقها الى العالم الخارجي .

انطوى القرن التاسع عشر أو كاد . فبدأ الانسان يفيق بعض الشيء من تلك الفتنة التي أحدثها الانقلاب الصناعي . وأخذ الفكر ينزع عن نفسه شيئا فشيئا ذلك الثوب المادي الذي اشتمله واحتواه حينا من الدهر . ويبحث عن حقيقة الوجود في هذه الحياة . التي تدب

ن اعصار الكون . لان حركة التصور الذاتى التى تنظم الحياة . ومازال الفكر يمعن فى هذه النزعة الجديدة حتى كادت الحياة تدب فى المادة نفسها . واصطبغت العلوم الطبيعية بصبغة حيوية . وهكذا كتب لها أن تلقى السلاح وتندحر أمام علم النفس فتهاتف بينما من عراك .

ولعل شوبنهور هو أول من فطن الى أن « الحياة » هى أساس الوجود ؛ ثم جاء برجسون فى عصرنا الحاضر وتناول هذه الفكرة بحثا واستقصاء . حتى استطاع بقوة ايمانه أن يجذب اليها انظار هذا العالم الذى طغت عليه روح اللاأدرية والشك طغيانا مروعا .

عكف برجسون على دراسة المذهب المادى ، وخلاصته ان العالم كتلة صوات من المادة والحركة ، وان الحياة والفكر وكل خصائص الانسان ليست سوى اعراض مختلفة لتفاعل المادة والقوة التى تحرك دقائقها . فكان كلما أمعن فى تلك الدراسة ، ازداد يقينا بفساد ذلك المذهب . وهو يتساءل فى دهشة : اذا كان العقل مادة وكانت كل عملية عقلية عبارة عن هزة عصبية لا أكثر ولا أقل ، فما فائدة الشعور ؟ أليس مجرد وجود الادراك دليلا قويا على ضرورته ؟

يقول المذهب المادى أن ليس ثمة « حياة ارادية » ، أى ليس فى الوجود تلك القوة الحيوية التى تريد هذا فتعمله . ولا تريد ذاك فتنفذه ، وكل ما هنالك حالات مادية متتابعة ، كل حالة نتيجة لما قبلها ومقدمة لما بعدها ؛ وهنا يتساءل برجسون : اذا كان الوجود وما يحوى فى لحظة معينة نتيجة آلية للحظة التى سبقتها ـ دون أن تكون هناك قوة مدركة تنشىء وتكون وتختار ـ واذا كانت تلك اللحظة السابقة بدورها أثراً آليا للتى سبقتها ، وهكذا دواليك . فنحن اذاً سنسير فى هذا التسلسل حتى نصل الى السديم الأول ، ونتخذ منه سببا لكل ما طرأ على الكون من أحداث . لا فرق بين دقيقها وجليلها ! ماذا ؟ هل يريدنا ذلك المذهب على أن نعتقد بأن السديم هو السبب فيما كتبه شكسبير مثلا ؟ وأنه العلة فى خطابة أنطونى وهملت ؟ !

هكذا أخذ برجسون من منطق الماديين ما يكفى وحده للرد عليهم وهدم مذهبهم من أساسه

العقل والجسم

لعل ما حدا بالانسان الى النزعة المادية فى تفكيره هو ارتباطه بالمكان ارتباطا وثيقا ، حتى خيل اليه أن الحياة ليست الا هـــذه الصور المكانية التى يحسها ؟ ولكن الحق الذى لا ريب فيه هو ان جوهر الحياة وروحها انما ينحصران فى الزمان أكثر مما يتعلقان بالمكان : والزمان فى الواقع عبارة عن تراكم صور كونية بعضها فوق بعض ، أو ان شئت فقل صورة كونية واحدة امتدت على طول الزمان وأخذت تنمو وتتزايد شيئا فشيئا . ومعنى ذلك أن الماضى من بدئه الأزلى لم يفن ، وانما أخذ يتقدم فتتزايد أحداثه قليلا قليلا الى أن تضخم فكون الزمان الحاضر

واذا كان الزمان عبارة عن مجموع الصور التى مرت على الوجود فيستحيل أن يكون المستقبل مشابها للماضى ، لأن فى كل خطوة زيادة تضاف الى تلك الكومة المتراكمة ، وفى كل دقيقة ينشأ شىء جديد ليس نتيجة لمقدمة سابقة ولكنه خلق خلقاً ولا يمكن استنتاجه قبل حدوثه . فالتغير سنة الحياة وألزم صفاتها

والذاكرة عند الانسان هى الوعاء الذى يمتد مع الزمن فيختزن فيه هذه الصور المتراكمة المتزايدة ، لكى تكون لنا عونا فى حياتنا ، اذ كلما اتسعت دائرة الحياة اتسع معها نطاق الاختيار ، أى يعرض للانسان مؤثرات عدة تستدعى منه سرعة اختيار التلبية المناسبة لكل من تلك المؤثرات . وهذه المؤثرات وتلبياتها تكون فى الانسان ادراكا يستعين به فى كل ما يعرض له من مشكلات

فالكائن الحى كتلة فعالة مؤثرة . لأنه يضيف الى العالم قوة ونشاطا ، وليس الانسان كما صوره الماديون آلة ميكانيكية لا حول لها ولا قوة ، ينفعل ويتأثر بعوامل البيئة دون أن يكون مركزا للخلق والزيادة . ففى قولنا ان الانسان مدرك لما يعمل اعتراف ضمنى بحرية اختياره .

قلنا ان وظيفة الذاكرة هى استدعاء الصور الذهنية التى مرت بنا فى التجارب الماضية مقرونة بما سبقها وما تلاها ، فتتمكن بذلك من الحكم فى المواقف المشابهة التى قد تعرض لنا ، حكما صادقا . ولكن للذاكرة فوق هذا عملا آخر ، فبوساطتها نستطيع أن نستوعب الخلود بأسره فى دقيقة واحدة ، وبذلك تحررنا من قيود الضرورة الطبيعية التى تخضع لها الأشياء الجامدة . يخطىء اذاً من يحسب الانسان آلة صماء فى يد القوانين المادية . انما هو كائن مدرك . حر الارادة . قادر على اختيار سلوك معين ؛ والاختيار خلق وانشاء . فليس الانسان رتيبا فى حياته كالحيوان المحدود بغرائزه .

واذاً فليس العقل والمخ (أى الجسم) شيئاً واحدا ؛ صحيح ان الادراك العقلى يعتمد على المخ ، يسمو ويضعف تبعا لسلامة هذا أو انحطاطه ، ولكن كما تعتمد ملابسك على المشجب . تظل عالية ما دام المشجب مثبتا فى الحائط ، وتهوى اذا ما سقط من مكانه . وبديهى أن ذلك لا يدل على أن الملابس والمشجب شىء واحد .

فالمخ مجموعة من التصورات وردود الأفعال . أما الادراك

فهو تلك القوة التي تختار من بين تلك المجموعة ماتريد . المخ هو المجرى الذي يسير فيه تيار الادراك ، ولكن ليس الماء ومجراه شيئاً واحداً . وأن يكن ذلك محدودا بهذا . ولا بد له ان يخضع لالتواءاته وتعاريجه .

واذا كان هذا هكذا ، فما الذي حدا بنا الى الاعتقاد بأن العقل والمخ شيء واحد ؟ لعل ذلك راجع الى أن جزءا من عقولنا ، وهو مانسميه بالذكاء ، قد نشأ وتطور لكي يمارس الأجسام المادية ويتفهمها ، فاكتسب من هذا الميدان المادي كل تصوراته وقوانينه . وهكذا أخذ الارتباط الذهني بين العقل والمادة ينمو شيئاً فشيئاً . حتى انتهى بنا الأمر الى الظن بأنهما شيء واحد ؛ ولكن هذا الذكاء الذي يكشف لنا عن العلاقات التي تصل المظاهر الكونية بعضها ببعض ، عاجز كل العجز عن ادراك الامتداد الزمني وما يجري فيه لتلك المظاهر من تغير وخلق ، أو بعبارة أخرى هذا الذكاء الذي يفكر في الصور المادية لا يستطيع أن يدرك ما في الكون من حياة ، لأنه يلتقط صوراً متلاحقة بعضها يجيء في أثر بعض ، أي انه يلتقط صورة الكون في هذه اللحظة ، ثم صورته في اللحظة التي تليها، ثم صورة ثالثة في التي تليها وهكذا . ومعنى ذلك أن العالم الخارجي في نظر العقل عبارة عن جملة صور لحظية تملأ كل صورة منها الكون بأسره ؛ هذه الصور تلي الواحدة منها الأخرى لحظة بعد لحظة ، وكل صورة لحظية من هذه الصور تمثل الحقيقة الخارجية في لحظة من اللحظات . ثم من تتابعها يتألف مجموع الحقائق الخارجية من أول الماضي الى آخر المستقبل . الا أن تلك الصور تظل مستقلة في الذهن ، لا يتناولها الاستمرار أو الحركة التي تربطها جميعاً ، مع ان الحياة ليست الا في وصل هذه الصور المجزأة . مثل العقل في ذلك ، كمثل الشريط السينمائي الذي يلتقط عددا من الصور المتلاحقة ، لاحياة في كل منها على حدة . فاذا مادبت فيها الحركة والاستمرار ، واتصل بعضها ببعض ، كونت حياة ، أو شيئاً يشبه الحياة . ولن يكون في هذه الصور التي تصلنا عن طريق الحواس شيء من الحياة ، حتى يتناولها تيار الحركة الدائم الذي يربط أشتاتها ويكون منها حقيقة واحدة يطرأ عليها التغير والتبدل كلما مر عليها شطر من الزمان

صحيح أن كل صورة حسبه هي جزء من الحياة ، ولكن مجموعها لايكون مجموعة الحياة ، الى أن يتحقق في إجزائها شرط الاتصال والربط ، فكما أن كل جزيء من الخط المنحني يمكن أن يكون جزءا من خط مستقيم بدليل أنهما يتماسان في أي نقطة شئت ، ومع ذلك لانستطيع أن تقول : بما أن أجزاء هذا هي أجزاء ذاك ، اذن فالخط المنحني هو الخط المستقيم ؛ كذلك قل في الحياة والمظاهر الطبيعية ، فليست الحياة هي مجموعة المظاهر الطبيعية ، على الرغم من أن تلك المظاهر هي الجزئيات التي تتكون منها الحياة .

يستنتج من هذا أن العقل ليس هو الأداة الصالحة لأدراك الحياة ، لأن هذا مطالب فوق مقدوره وأكثر مما يستطيع . اذ العقل كما بينا يميل الى استعمال الوجود لصالحه . وهذا الاستعمال يتطلب منه وقف تيار الحياة الذي يدب في الكون ، وتجزئة الوجود للتمكن من بعضه . فالعقل والحواس آلات للتجزئة ، والغاية منهما تيسير الحياة لا تصوير الوجود ، أي انها تتناول الوجود في ظاهره ولكنها لا تنفذ الى باطنه . . . ولما كانت المعرفة الحقيقية هي التي تمشي مع الوجود في تحوله ، وتتغلغل في باطن الأشياء ، وتحسها احساساً مباشرا كما يحس الحمل الوديع وجوب الفرار من غائلة الذئاب ؛ فالبصيرة وحدها هي الأداة الصالحة لذلك النوع من المعرفة المباشرة ، لأنها حاسة الحياة التي تنقل تلك الوحدة الحيوية التي تربط أجزاء الوجود .

التطور خلق وانشاء

لا يمكن أن يكون تطور الحياة على تلك الصورة البشعة القاسية التي وضعها دارون وسبنسر ، انما التطور خلق مستمر ، وتجديد متواصل ، وتغير لاينقطع .

الانتخاب الطبيعي عند دارون هو الأساس الذي تقوم عليه نشأة الأعضاء والوظائف والأنواع ، ولكن لم يكد يستوي ذلك المذهب على قدميه ، حتى أحاط به من الصعاب والمشكلات ما لم يقو على رده ، فكاد يخر صريعاً وهو مايزال في يفاعته .

كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يفسر نشأة حاسة الابصار مثلا؟ أولا ، لابد أن نسلم بأنه من المستحيل أن تكون العين قد نشأت على هذه الصورة المعقدة من بادىء الامر ، فاذا فرضنا أنها تكونت بعد سلسلة من الأطوار ، فهل من اليسير أن تقنع عقلا سليما أن تلك الأدوار التي مرت بها عين الانسان تطابق تمام المطابقة الأدوار التي مرت بها الحواس الابصارية لانواع الحيوان جميعا ؟! مع أن الانتخاب الطبيعي أساسه المصادفة البحتة ! وهل من الجائز أن تكون سلسلة المصادفات التي تعاقبت على عين الانسان وأذنه وأنفه وسائر أعضائه الأخرى هي هي التي تعاقبت على أعضاء الحيوانات جميعاً ؟!

واذا سلمنا — جدلا فقط — بأن تلك المصادفة السحرية

النجبية جائزة فى أنواع الحيوان لتشابه المؤثرات التى تحيط بها جميعا. فا قولك في الحيوان والنبات . وهما نوعان يسيران فى طريقين مختلفين أتم اختلاف ؟ كيف يتفق الاثنان على طريقة واحدة للتناسل ؟ كيف يوفق الحيوان . عن طريق المصادفة . الى اختراع الذكورة والأنوثة اداة للتكاثر . ثم يوفق النبات من هذا التوفيق وعن طريق المصادفة أيضا ؟ !!

كلا ! يستحيل أن يكون هذا الأساس الواهي قاعدة التطور ولابد أن يكون فى أجزاء الوجود — مهما تنوعت أشكالها — قوة كامنة متشابهة فى الجميع : هى الحياة . وهذه الحياة الحالة فى كل شيء تخلق فيه ميلا خاصاً وتوجيهاً معينا يؤثران فى كل جزئى من جزئياته . وهكذا يظل الجسم المادى يتشكل ويتغير حسب ذلك التوجيه الذى تمليه تلك الحياة الدافعة الكامنة فيه . وليس ثمة قوة خارجية تعمل على التطور كما خيل الى داروين وأشياع مذهبه .

هذه الحياة الشاملة تسعى جهدها للتغلب على الجمود المادى وطمس معالمه من الوجود . فهى تتغلب على الموت بالتناسل ، وان ضحت فى سبيل ذلك الأفراد : وهى تبذل كل ماتملك من قوة لتحرير نفسها من قوانين المادة وأغلالها : فوثوب الحيوان وسيره وسعيه وكل مايأتى من ضروب الحركة والنشاط . هو فى الواقع تحد من الحياة لتلك الأغلال والقيود .

كانت الحياة فى مبدأ ظهورها أشبه ماتكون بالمادة فى جمودها واستقرارها ، لأنها كانت تتمثل فى النبات وحده . والنبات كالجماد فى سكونه واستحالة سعيه وحركته : ولكنها ما لبثت أن نشدت الحرية من تلك القيود المادية : وراحت تسعى وراء ذلك المثل الأعلى ، فاخترعت أنواع الحيوان ، وزودتها بشتى الأعضاء التى يستطيع أن يحقق بها شيئا من تلك الحرية المنشودة . ثم ما لبثت أن عقدت آمالها فى واحد من تلك الحيوانات جميعا : هو الانسان. فلا شك فى أن الحياة تحاول ما استطاعت أن تسخر من قيود المادة . ونحن نضحك ونسخر اذا مارأينا كائنا حيا يتصرف كما تتصرف الكتلة المادية الجامدة . كأن تزل قدمه فيسقط بقوة الجاذبية كما تسقط قطعة الحجر .

يتضح من ذلك أن الحياة قد سارت فى تطورها خلال مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة النبات اذ كانت أقرب ماتكون الى سكون المادة وجمودها .

الثانيه : مرحله الحيوان الغريزى كالنحل والنمل الذى يتحرك ويسعى . ولكن فى حدود مرسومة وخطة معلومة .

الثالثة : مرحلة الحيوان العقلى . الذى أخذ يسير فى طريق الفكر . ولن يزال هذا الفكر ينمو ويشتد ويستقيم . فهو ذخر الحياة وأملها الذى سيحقق لها ماتنشد من حرية .

هذه الحياة التى لا تفتأ تخلق وتفور وتبتدع ، والتى تلتمس الحرية من قيود المادة . هى اذنه والحياة اسمان على مسمى واحد . ولكنه اله ذو سلطان محدود بقيود المادة . وليس مطلق الارادة كما تصوره الأديان . الا انه دائب فى التخلص من أغلاله وأصفاده . وأغلب الظن أن الحياة ستظفر آخر الأمر . ونكاد نوقن أنها ستتغلب على الموت . وتحقق لها الحرية والخلود . فكل شيء جائز فى نظر الحياة مادام فى الزمن امتداد

وبعد . فما أجمل أن يرتفع صوت برجسون بشيرا بما فى الكون من حياة فعالة خالقة ، ليقف تيار المادية الذى طغى على اوروبا فى القرن الماضى ، حتى غمرها بين ثناياه . وكم كنا نود أن نشترك معه فى ثل ذلك العرش الذى كان يتربع عليه اله العقل . ولكن على شريطة ألا يدعونا الى تقديس اله آخر : هو البصيرة : لأنها قد تخطىء كما تخطىء الحواس .



ابن خلدون في مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

١

ترددت خلال العام الماضي دعوة لإحياء ذكرى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده[١]. فاستجابت دوائر التفكير والأدب في جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة، وأقيمت عدة حفلات علية الإشادة بذكره وخالد آثاره، ولاسيما في تونس مسقط رأسه ومطلع مجده، وفي مصر مقام شيخوخته ومثوى رفاته؛ وحفلت المجلات والصحف حينا بمختلف البحوث عنه. ولكن ناحية من حياة المفكر الكبير لم تلق كبير عناية. تلك هي حقبة مقامه بمصر، وصلته بها، وأثره فيها؛ وهذا ما نريد أن نعنى به في هذا الفصل تحية لذكرى المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الأشهر

غادر ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون تونس في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م)، فوصل ثغر الاسكندرية في يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة. ويقول ابن خلدون في «تعريفه» عن نفسه، انه قدم الى مصر ليتنظم منها في ركب الحاج، وانه لبث بالاسكندرية شهرا يهيء العدة لذلك، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه الغاية، فقصد الى القاهرة.[٢] وكان قضاء الفريضة حجته الظاهرة في مغادرة تونس، واستئذان سلطانها أبي العباس في السفر الى المشرق. ولكن ما يقصه ابن خلدون من الحوادث قبل ذلك يدل على أن مغادرته لتونس كانت فرارا؛ وكانت خشية من بطش سلطانها، وغدر بلاطها. وكان ابن خلدون قد انفق نحو ربع قرن في خوض غمار السياسة ودسائس القصور، وتقلب في خدمة معظم

(١) كان مولد ابن خلدون في رمضان سنة ٧٣٢ هـ — مايو سنة ١٣٣٢م

(٢) «التعريف بابن خلدون»؛ وهو ترجمة المؤرخ لنفسه في ذيل تاريخه — راجع، كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون) ج ٧ ص ٤٠٥ ويشتمل هذا التعريف من ص ٣٧٩ الى ٤٦٢ — وسنعود الى ذلك بعد

سلاطين المغرب والأندلس، وذاق لذة الرياسة وجنى النقمة مرارا، وعانى مرارة السجن والأسر وخطر الهلاك غير مرة. ولم تهدأ نفسه المضطرمة بشغف المغامرة والنضال والدس الا في كهولته، يوم أعيته الحيل، وغلبه الأرزاء والمحن، وفقد عطف معظم القصور التي تقلب فيها، وأضحى يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التي كان يتخذ قضاءها وسيلة للنفوذ والرياسة. عندئذ عافت نفسه غمر السياسة ودسائس القصر، فارتد في أواخر سنة ٧٧٦ هـ. الى قلعة نائية منعزلة بناحية أولاد عريف بالمغرب الأوسط؛ وهنالك انقطع للبحث والتأليف مدى أربعة أعوام، وأخذ في كتابة تاريخه الضخم، وأنجز منه مقدمته الشهيرة وعدة مجلدات أخرى. ثم رأى أن يقصد الى تونس ليستكمل مراجعه في مكاتبها. وكانت بينه وبين سلطانها وحشة: فاستأمنه وحصل على رضائه؛ وغادر مقامه النائي الى تونس فوصل اليها في شعبان سنة ٧٨٠. وهنالك اشتغل باتمام مؤلفه بتكليف السلطان ورعايته حتى أتمه، ورفعه الى السلطان، ومدحه يومئذ بقصيدة طويلة أوردها في «تعريفه». وكان ذلك لنحو عامين من مقدمه الى تونس (٧٨٢ — ١٣٨٠ م)[١]

وهنا ألفى ابن خلدون نفسه في معترك جديد من الدسائس، وقصده رجال البطانة بالكيد والسعاية لدى السلطان. وأغروه أكثر من مرة باستصحابه الى غزواته ومهامه الخطرة، فخشي ابن خلدون عاقبة السعاية، ولم يجد في تونس ما كان ينشده من هدوء وسكينة. فانتهز فرصة وجود السلطان في تونس، ووجود سفينة مصرية في مرساها تقصد الاسكندرية، فألح على السلطان في الاذن له بالسفر لقضاء الحج، وركب البحر بمفرده تاركا اسرته في تونس، فوصل الاسكندرية كما قدمنا في يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤[٢]

كان مقدم ابن خلدون الى مصر اذاً، نوعا من الفرار وخيفة البطش والمحنة، ولم يكن قضاء الفريضة قصده المباشر، بل كان حجته الظاهرة. وكان يرجو بلا ريب أن يقضي بقية أيامه بمصر في هدوء

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٤٤ وما بعدها.

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥١

ودعة ، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهيئه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان وافر النشاط والقوة . يتطلع دائما الى مراتب النفوذ والعزة : وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الاسلامى فى المشرق والمغرب ، ولسلاطها شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية . ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أول ذى القعدة سنة ٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢ : فبهرته ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن[١] وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولا غرو فان المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصغيرة المتواضعة . ولم ير بالأندلس حيث قضى ردحا من الزمن ، مدينة فى عظمة القاهرة وروعتها . وهو يهتف للقاهرة أثر مقدمه ويحييها بعبارة تنم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها فى تلك الفقرة الرنانة : « فرأيت حاضرة الدنيا . وبستان العالم . ومحشر الأمم . ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسى الملك : تلوح القصور والاواوين فى جوه . وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه . وتضىء البدور والكواكب من علمائه : قد مثل بشاطىء النيل نهر ، ومدفع مياه السماء . يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه : ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ... »

ولم يكن ابن خلدون نكرة فى مصر . فقد كان المجتمع القاهرى يعرف الكثير عن شخصه وسيرته : وكانت نسخ من مؤلفه الضخم ولاسيما مقدمته الشهيرة قد ذاعت قبل ذلك بقليل فى مصر وغيرها من بلدان المشرق . وأعجبت دوائر العلم والتفكير والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها . فلم يكد يحل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب . يقول ابن خلدون فى كبرياء وتواضع معا : « وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الافادة مع قلة البضاعة . ولم يوسعونى عذرا »[٢] وهذا ماتشير اليه التراجم المصرية : فيقول ابو المحاسن بن تغرى بردى فى ترجمته لابن خلدون : « واستوطن القاهرة وتصدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة . واشتغل وأفاد »[٣] ويقول السخاوى : « تلقاه أهلها (أى أهل مصر) وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد عليه . بل تصدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة ... »[١] . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر ، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكى . ويشرح نظرياته فى العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول وغيرها مما عرض اليه فى مقدمته . وكانت هذه الدروس خير أعلان عن غزير علمه . وشائق بحثه . وساحر بيانه . وكان ابن خلدون محدثا بارعا رائع المحاضرة ، يخلب الباب سامعيه بطلاقته وذلاقته . وهذا ما يحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعوه أو درسوا عليه : ومنهم المؤرخ الكبير تقى الدين المقريزى الذى سمعه ودرس عليه فتى .[٢] وكذا الحافظ ابن حجر : فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا ، فصيحا ، حسن الترسل وسط النظم : مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة »[٣] ونقل السخاوى عن الجمال البشبيشى انه « كان فصيحا مفوها جميل الصورة » ، وعن الركراكى : ان محاضرته اليها المنتهى »[٤]

. وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يخلب الباب المجتمع القاهرى . وأن يستثير اعجابه وتقديره : ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلا كما سنرى . وفى اثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمير من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجوانى[٥] فشمله برعايته . وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به . وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق : وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤) ، فاكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره : يقول ابن خلدون : « فأبر مقامى . وآنس الغربة . ووفر الجراية من صدقاته . شأنه مع أهل العلم » وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الاستقرار والمقام الهادىء فى ظل أمير يحميه ويكفل رزقه ، ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمحية . بجوار جامع عمرو وهى من مدارس المالكية فعينه السلطان فيه . ويعنى ابن خلدون فى تعريفه . بوصف مجلسه الأول فى هذا المعهد :

« البقية على صفحة ٢١ »

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م فى عهد الناصر بن قلاوون

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٢

(٣) كتاب المنهل الصافى لابن تغرى بردى — نسخة دار الكتب الخطية رقم ١١٤٣ تاريخ — ج ٢ ص ٣٠٠

(١) كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع عشر للسخاوى — نسخة دار الكتب الفتوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٦٧

(٢) تعود إلى تقدير المقريزى لشخصية ابن خلدون فيما بعد .

(٣) كتاب أنباء الغمر فى أنباء العمر لابن حجر العسقلانى (نسخة دار الكتب الخطية رقم ٢٤٢٦ تاريخ) ج ١ ص ٧١١

(٤) الضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى — ص ٣٦٩

(٥) هكذا اسمه فى « المنهل الصافى » ولكن السخاوى يسميه « الطنبغا الجوبانى »

أثر اللغة العربية في العالم الاسلامي

للسر دنسون روس

مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن

هذه ترجمة المحاضرة الاولى من المحاضرات الثلاث التي ألقاها السر دنسون روس باللغة الانجليزية في قاعة الجمعية الجغرافية إجابة لدعوة الجامعة المصرية وقد قدمت الجامعة على كل محاضرة خمسين جنيها وستنشر ترجمة المحاضرتين الأخريين تباعا في الاعداد المقبلة

تمهيد :

أشعر وأنا أختار موضوعا مثل هذا لمحاضرة في الجامعة المصرية ، انه ينطبق على المثل القائل « كمن يجلب الفحم إلى نيوكاسل » أو على حد تعبير الفرنسيين « كمن يحمل الماء الى البحر » أو كما يقول العرب « كمن ينقل التمر الى البصرة » أو « كمن يبيع الماء في حارة السقائين » .

إذ كيف يجرؤ شخص مثلي لا يخرج عن كونه تلميذاً يدرس العربية أن يقوم ببحث في هذه اللغة العظيمة على مرمى قوس من الأزهر ؟ إن اعتذاري عن هذا ينبغي أن يكون اعتذار النملة أمام عرش سليمان . !

وربما قيل عن عنوان محاضرتي أنه تقرير لقضية مسلمة ، فالعربية لغة القرآن والحديث وتأثيرها في العالم الاسلامي حق لا ريب فيه . ولكنني أرجو أن أسوغ عنواني هذا بأن أبين تأثير اللغة العربية في تلك الممالك التي تتكلم لغات أخرى ، وتتكلمها لا على أنها واسطة لفهم العقائد وإقامة الشعائر الدينية ، بل لأنها عامل منتج من الثقافة العامة .

ذلك لأنه ينبغي أن نعلم حق العلم أن ليس ثمة دين عالمي آخر قامت فيه اللغة الأصلية للكتب المقدسة بذلك الشأن الخطير كما هو الحال في الاسلام .

فاذا اعتبرنا البوذية والمسيحية وهما ديانتان تقومان بالدعاية فاننا نلاحظ أن كتبهما المقدسة إذا أذيعت في ممالك أخرى فانما تذاع بلغة تلك الممالك . خذ لذلك مثلا تلك المجموعة الضخمة مجموعة القوانين البوذية المعروفة باسم « السلات الثلاث » (١) فانك تجدها تقرأ في الصين واليابان مترجمة إلى لغة تلك البلاد . حقاً إن لغة الهند الأصلية قد اختفت كما اختفت البوذية نفسها من الهند .

وقل مثل هذا عن التوراة والانجيل فانهما يقرآن في الأمم المسيحية بلغة كل منها دون أن تقوم العربية أو المسيحية بأي شيء في حركات الدعاية التي تقوم بها الجمعيات الدينية .

وان اللغة الوحيدة التي يمكن مقارنتها بالعربية من حيث أنها واسطة للعالم الديني إنما هي اللغة العبرية . على أن هناك اختلافا بين الحالتين من بعض الوجوه وإن اتفقت اللغتان في أن كلتيهما تدين بخطرها الاسلامي إلى أنها لغة الكلام المنزل من عند الله . وأما العبرية فنجد أن كل فتى من اليهود يحفظ بعضاً منها . ولكن اليهودية لا تعتبر الآن من الأديان الواسعة الانتشار وذلك على الرغم من انتشار جاليات اليهود في أنحاء العالم . وإنك لتجد طوائف وطنيين منهم في الحبشة لا يعرفون من العبرية إلا قليلا .

ويجب أن نتذكر أني إنما أبحث في التأثير اللغوي الذي أحدثه القرآن لا في رسالة النبي . وعلى ذلك فانني أستطيع تقرير تلك الحقائق دون أن أسيء الى الحاضرين من المسيحيين واليهود .

إن التأثير الذي تركته العوالم البوذية والكتب العبرية المقدسة في آداب الممالك البوذية والمسيحية لا يقل شأنا عن تأثير القرآن إن لم يكن أكثر في ناحية الفن .

ولكن ما حدث في الصين وفي أوربا هو أن تلك الكتب المقدسة قد أصبحت جزءاً من الآداب القائمة إذ ذاك وكانت تلك الآداب غنية بالأبحاث والموضوعات الدنيوية . وفيما يتعلق بأوربا نقول إنه لما كانت اللغات الحديثة قد اشتقت من اللاتينية والتوتونية القديمة ، فانه لما ترجم الانجيل الى تلك اللغات . أصبح ذلك الكتاب هو المؤثر الثابت فيها كما يشهد بذلك الجهد الذي بذله لوثر في وضع أساس الألمانية الراقية الحديثة .

نعم لقد لعبت اللاتينية بين الكاثوليك دوراً مشابهاً لذلك الدور الذي لعبته العربية بين المسلمين « ولكن اللاتينية لم تكن لغة التنزيل » .

الموضوع :

ولنعد الآن الى الموضوع الأساسي لمحاضرتي . وستكون الممالك التي يتناولها بحثي هي تلك التي لا يزال الاسلام سائداً فيها ولكن لا تتكلم العربية . أعني بلاد الفرس وبلاد الهند وما وراء النهر وتركيا .

إن دخول الشرق الأدنى والشرق الأوسط والهند تحت نفوذ العرب — وقد كانوا أنفسهم حديثي العهد بالدخول في الدين الجديد وقبول « الوحدانية السامية » (٢) — قد أدى الى ثورة عظيمة « في الأدب والثقافة » لا تقل في خطورتها من حيث

(١) Taripitaka or Three Baskets

(٢) Semitic Monotheism

قوتها وتمامها، ومن حيث أنها مبدأ عهد جديد . عن ذلك التغيير الذى طرأ على العقيدة الدينية

ويرجع هذا فى أساسه الى ذلك التأثير المعجز الذى أحدثه القرآن فى نفس كل من اعتنق الاسلام .

فان القرآن وهو كلام الله الذى أنزله على رسوله قد قوبل من المسلمين قاطبة بالاحترام والاجلال . أولا ، من أجل عباراته ذاتها لأنها تنزيل من الله، وثانيا لما اشتمل عليه من الآيات البينات، ومن أجل ذلك كان لزاما على من يقبل الاسلام أن يقبل معه اللغة العربية . تلك اللغة التى نزل بها القرآن وأرسل بها الرسول .

وهنا لا نجد لغة غريبة غير مستعملة لا يفهمها إلا عدد محصور من العلماء . كما كان الحال فى ديانة زرادشت(١) والديانة الهندية(٢) ، بل نجد (لغة حية) يتكلمها أولئك القوم الذين دعوا سكان الممالك التى فتحوها الى الدخول فى الدين الجديد .

إن الرقى الفجائى الذى طرأ على اللغة العربية وأحالها الى لغة مهذبة مكتوبة ليعد من أعجب الأمور اذا تذكرنا أنه فى الوقت الذى ظهر فيه الرسول لم يكن لدى العرب « أدب لغة »(٣) بالمعنى الذى يفهم من هذه العبارة . وان استعمال الخط كان قليلا الى درجة كبيرة بدليل أنه فى أثناء الكفاح بين المسلمين وأعدائهم كما حدث فى بدر وأحد كان المتبع أن يبقى المسلمون على حياة من يعرفون الكتابة من الأسرى .

ولكن العرب قد أخرجوا فحول الشعراء الذين تغنى الناس بشعرهم فى طول شبه الجزيرة وعرضها ، وإن كان الخلاف لا يزال قائماً بين الباحثين فيما إذا كانت هذه الأشعار قد ظهرت حقاً فى الجاهلية أم فى الاسلام .

والذى يهمنا هو أن بين هذه الأشعار طائفة يمكن اعتبارها فى المنزلة الأولى لا فى أدب العرب فحسب . ولكن فى أدب العالم أجمع .

وكان القرآن يمثل اللهجة التى كانت شائعة فى الحجاز . والى أن قام الخليفة عمر (بمراجعاته) الرسمية الدقيقة للقرآن . لم يكن هناك أى كتاب فى النحو ، كما لم يكن هناك أى قاموس عربى . وكان الفرس أول من ميزوا أنفسهم باستنباط بعض القواعد النحوية من القرآن .

وبعد هذا أخذ الأذكياء فى العالم الاسلامى يحذقون هذا اللسان الصعب . وابتدأ الناس يدرس بعضهم بعضا كل ما حصل من اللغة . ومنذ ذلك الوقت ، فيما بين أسبانيا وسمرقند ، أخذ الكثير من الشعراء المطبوعين ، الذين كانوا من قبل فى حاجة الى أداة يظهرون بها أفكارهم ينظمون الشعر بالعربية ولقد شرعوا أول أمرهم يحاكون الأشعار البدوية التى لم يكن لهم بموضوعاتها علم مباشر ، ثم أخذوا يطرقون من الموضوعات ما تميل اليه قلوبهم . وما يوافق طبيعتهم وبيئتهم « يتلى »

(١) Zoroastrian (٢) Hindu (٣) Literature

موسى بن شاكر

وبنوه الثلاثة

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

عضو الجمعية الرياضية بلندن

منشؤهم

ظهر موسى بن شاكر فى عصر المأمون ولمع فى سماء العلم ولا سيما فى الهندسة وانبثق منه ثلاث نجوم : محمد وأحمد وحسن نبغوا فى الرياضيات وعلم الهيئة والفلسفة ، وكان لهم فى ذلك مؤلفات نادرة عجيبة . وهؤلاء الأربعة « ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا الى بلاد الروم من أخرجها اليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السنى . فأظهروا عجائب الحكمة . وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الأقل (١) . . »

ويقال إن موسى مات صغيرا وقد خلف أولاده الثلاثة صغاراً اعتنى بهم المأمون كثيرا . ووصى بهم اسحاق بن ابراهيم المصعبى وأمره بالاهتمام بهم والمحافظة عليهم . وانقطعوا الى العلوم يبحثون عنها فتاصروا فيها واستطاعوا أن يجيدوا أكثرها . فأكبرهم وهو أبو جعفر محمد أجل اخوته عالماً بالهندسة والنجوم والمجسطى ، وكان جماعة للكتب ، ومضى عليه زمن كان مدخوله السنوى أربعمائة ألف دينار (٢) . أما أحمد فقد كان دون أخيه فى العلم إلا صناعة الحيل فقد تعمق فيها . وأجادها وتمكن من الابتكار فيها ، وفاق القدماء المحققين فى هذا العلم مثل (ايرن) . وأما حسن فقد كان منفرداً فى الهندسة . ومع انه لم يقرأ من كتب الهندسة إلا ست مقالات من كتاب اقليدس فى الأصول . فقد حدث نفسه « باستخراج مسائل لم يستخرجها أحد من الاولين ، كقسمة الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، وطرح خطين بين خطين ذوى توال على نسبة . فكان يحللها ويردها الى المسائل الأخرى ولا ينتهى الى آخر أمرها ، لأنها أعيت الأولين (٣) » . ويحكى عنه أنه كثيرا ما كان يغرق فى الفكر فى مجلس فيه جماعة فلا يسمع ما يقولون ولا يحسه .

مآثرهم

ثبت أن المأمون أمر بنى موسى بقياس درجة من خط نصف النهار لايجاد محيط الأرض ، وقد أجروا حسابهم ذلك فى سنجار

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٦٨ و ٣٦٩

(٢) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٨٧

(٣) [illegible] ص ٢٨٧

كما أجروه ثانية في الكوفة. ومن توافق الحسابين علم المأمون صحة ماحرره القدماء في هذا الصدد(١) وهم الذين كلوا الزيج المصحح، وحسبوا الحركة المتوسطة للشمس في السنة الفارسية. وحددوا ميل وسط منطقة البروج المسماة بالاكليتيك في مرصدهم المبني على جسر ببغداد المتصل بالباب المسمى بالطاق. وعرفوا فيها فروق حساب العرض الأكبر من عروض القمر(٢) وقد عول ابن يونس في أرصاده الفلكية على ارصادهم، وعمل أحدهم وهو محمد تقويمات لمواضع الكواكب السيارة(٣). ولأبناء موسى في الحيل كتاب يعرف بحيل بني موسى، وهو عجيب نادر، يشتمل على كل نادرة وقد يكون هو الكتاب الأول الذي يبحث في الميكانيك ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها، وهو مجلد واحد(٤)، وهي (أي الحيل) شريفة الأغراض عظيمة الفائدة مشهورة عند الناس(٥) ويحتوي هذا الكتاب على مائة تركيب ميكانيكي عشرون منها ذات قيمة عملية(٦). وقد كتبوا في فن الآلات الروحية(٧) وهذا العلم «يتبين فيه كيفية ايجاد الآلات المرتبة على ضرورة عدم الخلاء. ونحوها من آلات الشراب وغيرها، ومنفعته ارتياض النفس بغرائب هذه الآلات كقدحي العدل والجور و و .... (٨)». وعلى ذكر قدح العدل وقدح الجور يقول كشف الظنون في الجزء الأول ص ١٣٧ ما يلي: «أما الأول (قدح العدل) فهو اناء اذا امتلأ على قدر معين يستقر فيها الشراب، وان زيد عليها ولو بشيء يسير ينصب الماء ويفرغ الاناء عنه بحيث لا يبقى قطرة. وأما الثاني (قدح الجور) فله مقدار معين ان صب فيه الماء بذلك القدر القليل يثبت، وان ملئ يثبت أيضاً، وان كان بين المقدارين يفرغ الاناء كل ذلك لعدم امكان الخلاء ...» وأكثر هذه الآلات توضح أنواعا من الحيل العلمية. وهي مبنية على المبادئ الميكانيكية المنسوبة لهيرو الاسكندري(٩). وقد اهتموا بنقل أحسن الكتب اليونانية، حتى أن أحدهم وهو محمد ذهب الى بلاد اليونان ابتغاء الحصول على مخطوطات تبحث في الرياضيات والفلك(١٠) واستعملوا منحنى نيكوميدس Conchoid في تقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية(١). واستعملوا الطريقة المعروفة الآن في انشاء الشكل الاهليلجي(٢). أما الطريقة فهي أن تغرز دبوسين في نقطتين، وأن تأخذ خيطا طوله، أكثر من ضعف البعد بين النقطتين. ثم بعد ذلك تربط هذا الخيط من طرفيه وتضعه حول الدبوسين. وتدخل فيه قلم رصاص، فعند ادارة القلم يتكون الشكل الاهليلجي. وتسمى النقطتان محرقي الاهليلجي أو بؤرتيه. وفي احد مؤلفاتهم في الهندسة استعملوا القانون المعروف بقانون (هيرون) لمساحة المثلث اذا علم طول كل ضلع من أضلاعه(٣). ولا يفوتنا أن نذكر أنه نسب الى أبيهم موسى القول بالجاذبية. يدلنا على ذلك ما جاء في كتاب بسائط علم الفلك للعلامة صروف الذي يقول: «وهذا التفاعل بين الاجرام السماوية الذي يطلق عليه اسم الجاذبية العمومية انتبه له بعض العلماء من قديم الزمان. فأشار اليه بطليموس صاحب كتاب المجسطي حاسباً انه هو الذي يجعل الأجسام تقع على الأرض متجهة نحو مركزها، وهو الذي يربط كواكب السماء بعضها ببعض. ويقال أن موسى بن شاكر المهندس الذي نشأ في أوائل القرن الثالث الهجري انتبه له أيضا وقال به.»(٤)

مؤلفاتهم

كتب بنو موسى في موضوعات مختلفة: في الهندسة والحيل والطب والمساحة والمخروطات وعلم الهيئة. وقد أجادوا في ذلك الى درجة أثارت اعجاب كثير من العلماء، فمن تآليفهم كتاب بني موسى في القرسطون، وكتاب مساحة الاكر، وكتاب قسمة الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية، ووضع مقدار بين مقدارين ليتوالى على قسمة واحدة(٥)، وكتاب يبحث في الآلات الحربية(٦).

ولأحدهم وهو احمد كتاب بين فيه بطريق تعليمي مذهبا هندسيا وهو ليس في خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة.

وللحسن: كتاب الشكل المدور والمستطيل. أما محمد فله كتاب حركة الفلك الأولى، وكتاب الشكل الهندسي، وكتاب الجزء، وكتاب في أولية العالم، وكتاب على مائية الكلام. وفي الفهرست ينسب الى محمد كتاب المخروطات، ولكن كتاب كشف الظنون يقول في هذا الكتاب ما يلي: «... وقال أبو موسى شاكر الموجود من هذا الكتاب سبع مقالات وبعض الثامنة، وهو أربعة أشكال، وترجم الأربع الأول منها احمد بن موسى الحمصي. والثلاث الأواخر ثابت بن قرة ... أصلحها الحسن واحمد بن موسى بن شاكر(٧) ...»

نابلس — فلسطين		قدري حافظ طوقان

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج ٢ ص ٨٠
(٢) سيديو: تاريخ العرب ص ٢١٠
(٣) « « ص ٢١٠
(٤) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٩
(٥) ابن القفطي — أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٠٨
(٦) كتاب تراث الاسلام Legacy of Islam ص ٣٢١
(٧) الانصاري — ارشاد القاصد ص ١١٣
(٨) « « ص ١١٣
(٩) كتاب تراث الاسلام ص ٣٢١
(١٠) كاجوري — تاريخ الرياضيات ص ١٠٤

(١) سمث — تاريخ الرياضيات ج ١ ص ١٧١
(٢) « « ج ١ ص ١٧١
(٣) كاجوري « ج ١ ص ١٠٤
(٤) صروف: بسائط علم الفلك ص ٢١ و ٢٢
(٥) ابن النديم: الفهرست ص ٣٧٩
(٦) الانصاري: ارشاد القاصد ص ١١٣
(٧) كاتب جلبي — كشف الظنون ج ٢ ص ٢٩٩

طرائف من شعر الشباب

مناجاة غـــدير

للأستاذ محمود الحفيف

سائغ صفى الخلوص فوق حرير ... من نسيج الربيع يمشى حبيا
كنت قبل الشروق عند غدير ... ملأ الشمس من غيابه خبا

....

كل ما في الوجود حلو جميل ... يبعث البشر في الفؤاد ندما
ونسيم الصـــباح عذب عليل ... باعث في الربوع نشراً ذكيا

....

ساد حول الكون لولا غدير ... عبقرى الخيال ساحى البيان
ثائر هادئ معنى صـــبور ... رائق الحس مستفيض المعاني

....

زاده الصبح والكون رواء ... وكساه الربيع ظلا ظليـــلا
وحباه الشباب منه مضاء ... فترى الماء دافقاً سلسبيلا

....

ياغدير الصـباح هجت قلبي ... أنت للنفس رحمة وعـــذاب
لست أدرى وقد تملكت لي ... أترنمت أم عراك انتحاب؟

....

ياغدير الصـباح لحنك عذب ... باعث في الفؤاد شتى المعاني
ياغدير الصباح هل أنت صب ... تعرف البعد في الهوى والتداني؟

....

أى معنى أردت ان فؤادى ... حركته لما تقول شجون
ويح نفسي لقد ملكت ودادي ... فعرفت الخشوع كيف يكون

....

هبه يا أيها الغـــدير فإنى ... إن ترنمت أو بكيت سميع
ياغدير الصباح أفصح وزدنى ... ان قلبى بما تقول ولوع

....

ان ترنمت ياغـــدير فعندى ... من دواعى السرور ذاك الغناء
واذا ما بكيت حركت قلبى ... فقلبى لكل باك رثاء

....

لست يا أيها الغـــدير بشاك ... كيف تشكو ولست تعرف ظلما!
لست يا أيها الغـــدير بباك ... كيف تبكى؟ أأنت تعرف هما؟

....

لم تجرب شماتة من عدو ... أو تحمل إساءة من صديق
أو تقاس العناد بعـــد دنو ... أو تعانى الظنون بعد وثوق

....

لم تسهد بجفوة من حبيب ... أو تعذب بحيـــرة وارتياب
أو تفاجأ بمقتة من رقيب ... أو تروع بنبوة من صحاب

....

لم تصادف تفاخراً من دعى ... أو تبادر بغلظة من جليس
أو تشاهد تطاولا من غبى ... أو تجرع اهانة من خسيس

....

لم تخف ياغـــدير قط عداء ... أو تذق ياغدير للحزن طعما
أو تقابل لدى الحياة صعابا ... كيف هذا ولست تعرف وهما؟

....

أنت يا أيها الغدير طروب ... ناعم البال لست ترهب رزءا
مطمئن الى الحياة لعــــوب ... لست تدرى عن المنية شيئا

....

ياغدير الصـباح زدنى غناء ... واملأ القلب من غنائك وحيا
كل حي سواك غاد هباء ... ياغديرا تقد وعيشك وعيا

في الليــــل

اسكتي ياطيور! لاتملأى الليل ... غناء بصوتك الخـــلاب
وقفي يا غصون لا تتناغى ... بحديث الهوى وهمس العتاب
طاب لي مجلسي بعيداً عن الـ ... ـناس في نجوة من الأصحاب
فتنتني سكينة الليل والليـ ... ـل سكون يطيـــر بالألباب
واحتوانى الظلام حتى كأنى ... قطعة منه في ســواد اهاب
وكأن السماء صحراء خرساء ... بدا نجمها كومض السراب
وكأن الليل البهيم عباب ... وأنا سابح بهـــذا العباب
بين شطين من ظلام قد امتــدا امتداد العصور والاحقاب

* * *

نام زهر الرياض في سرر العشـ ... ـب ونامت على السفوح الروابي
وسرت روح شاعر يعبد الحسـ ... ـن فرفت في الليل بين السحاب
انما الليل للذى يعرف الليـ ... ـل وما فيــه من معاني عذاب
قدس الليل، انه هيكل السحـ ... ـر ووحى الهوى وسر الشباب

أمين عزت الحديني

الله وراء كل شيء

شغلت نفسه فضلت هداها ... وتجـــلى المها في هواها
زعمت أن طبها أزلى ... كذبتنا وحق من ســواها
واقام النفوس ان تلف مولا ... ها حنيفا بها عصت مولاها
ضلة للعقول لم تك شيئا ... ثم كانت فأنكرت من براها!
قف حيال السماء ليلا وسائل ... سفن النيرات من أجراها؟
سفن موجها الأثير ولا يعـ ... ـلم الا ربانها مرساها
جاوزت في العيون حد التقصى ... فتراها ولا تكاد تراها

ان تطالع أبصارنا مبتداها ... فالى الله ربنا منتهاها

....

واسأل الوردة ! كنت كل لون ... من كساها ومن حباها شذاها ؟
ألبستها الأوراق كف قدير ... فأرتنا لثم الشفاه الشفاها
ابرزتها عذراء من خدر كم ... فى حياء تورّدت وجناتها
ودعتها مليكة الزهر لما ... ألبستها الرياض تاج نداها
فاصغ للجواب منها تجدها ... باسم من حاكها تحرك فاها

....

شجرات فى الروض مشتبهات ... شهوة الآكلين فاطعم جناها
ذقت هذى فيا أمر جناها ... ثم هـذى فقلت ما أحلاها !
ما اختلاف الطعوم والماء فيها ... واحد، والتراب أصل غذاها ؟
صاغها مثلما أراد بديع ... قد نفينا عن ذاته الأشباها

....

ثم سائل بلابل الأيك تشدو ... فيهز الأملاك لحن غناها
وتناجى القلوب وهى تغنى ... فتذيب القلوب فى نجواها
من برى هذه الحناجر عيدا ... نا وأنشا قيثارة فى لهاها ؟
انه مبدع كسا الطير ريشاً ... وحباها فى الجو ملكا وجاها

....

هذه النملة الدقيقة خلقاً ... كيف تسعى وكيف تبنى قراها ؟
هذه النحلة ! كنت حيرات ... من طهى شهدها وسل خفاها ؟
قل لشمس النهار من جلاها ... واسأل الارض من أدار رحاها ؟
واسأل الريح كيف تزجى سحابا ... واسأل السحب كيف تهمى مياها
ثم سائل بروقها مشرعات ... هل تضج الرعود خوف أذاها
واسأل الدوح كيف شب لظاه ... واسأل الراسيات من أرساها
مدها فى الثرى وأعلى ذراها ... قادر فى غد يحل عراها

....

ضل فى التيه من أبى الرشد تيهاً ... يا أخا العقل لا تكن تياها
يجهل العقل كنهه وهو عقل ... وجدير أن يدرك الأكناها
قل له ما الاثير وهو فضاء ... ان يحمل رسالة أداها ؟
ثم ما الكهرباء وهى قريب ... منه وهو البعيد عن معناها ؟
قل له ما ارتباط جسم بروح ... ضل فيها دراسة واكتناها ؟
هل أعنا الأعصاب حين أصاخت ... أذناها واذ رنت مقلتاها ؟
أو أعنا للقلب نبضا ضعيفا ... تستمد الأبدان منه قواها
أو أعنا الأنفاس مطردات ... وهى فى النوم لا نى رتناها
ان خلف العقول ربا حكيما ... أودع الكائنات سر بقاها

عبد المغنى المناوى
المدرس بالمدرسة الخديوية

ابن خلدون فى مصر

« بقية المنشور على صفحة ١٦ »

قد شهده جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده : والتفوا حول المؤرخ . والقى ابن خلدون فى ذلك الحفل خطابا بليغاً ، يحرص على ايراده بنصه . وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء فى شد أزر الدولة الاسلامية . وعن تغلب الدول . ثم أشاد بما لدول السلاطين المصرية من فضل فى نصرة الاسلام . واعزازه . ومن همم فى انشاء المساجد والمدارس . ورعاية العلم والعلماء والقضاة . ثم دعا للملك الظاهر . وأشاد بعزمه وعدله وعقله : وعطف بعدئذ على نفسه . وما أوليه من شرف المنصب فى تلك العبارة الشعرية : « ولما سبحت فى اللج الأزرق . وخطوت من أفق المغرب الى أفق المشرق . حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق . وشجرة الملك التى اعتز بها الاسلام تهتز فى دوحه المعرق . وأزهار الفنون يسقط علينا من غصنه المورق . أولونى عناية وتشريفاً . وغمرونى احسانا ومعروفا . واوسعوا همتى إيضاحا ونكرى تعريفاً . ثم أحلونى للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف . . . الخ »[1]

النقل ممنوع ‏ ‏ ‏ ‏ « للبحث بقية »

---

(١) لم يرد وصف هذا المجلس : ولا نص هذه الخطبة فى فصول « التعريف » المطبوعة الملحقة بتاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) . ولكنهما وردا فى نسخة خطية أتم من « التعريف » تحفظ بدار الكتب المصرية (رقم ١٠٩ أم تاريخ) — (ص ١٠٨ — ١١٠) . ونسخة التعريف المتداولة تقف فى ترجمة المؤرخ والتعريف به عند مستهل سنة ٧٩٧ هـ (راجع كتاب العبر — طبعة بولاق ج ٧ ص ١٤٦٢) حيث يختم ابن خلدون فصول التعريف عن نفسه . ولكن نسخة دار الكتب الخطية التى ذكر فى نهايتها إنها نقلت عن نسخة أصلية للمؤلف تحتوى بعد ذلك على عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون فى مصر . كتبها باسهاب عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء . وعن سببه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب . وعن بعض حوادث مصر الداخلية يومئذ ثم سفره الى الشام فى ركب الملك الناصر فرج . ولقائه ملك التتار تيمورلنك فى دمشق وما دار بينهما من الأحاديث ثم عوده الى مصر . ويتخلل ذلك كله تعليلات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته فى المقدمة . ويصل ابن خلدون فى رواية حوادث حياته هذه حتى سنة ٨٠٧ هـ . أعنى قبل وفاته بنحو عام فقط . وتشغل هذه الفصول فى النسخة الخطية المذكورة نحو أربعين صفحة كبيرة (من ص ١٠٧ حتى النهاية) . وهذه النسخة هى التى نشير اليها فيما بعد .



نظرات فى الأدب الفارسى

منذ نشأته الى إغارة التتار

للدكتور عبد الوهاب عزام

مهما تختلف الآراء فى تاريخ أقدم آثارة من الأدب الفارسى الحديث فان مؤرخا يستطيع أن يقول أن ظهور هذا الأدب صحب ظهور الأمارات الوطنية فى إيران ، فهذه الأمارات بعثت الأمل فى نفوس الفرس وأتاحت لهم فرصة يستطيعون فيها التقرب بالمدائح وغيرها الى أمراء يفهمون عنهم ، ويعجبون بهم ، ويسرهم أن تحيا آداب لغتهم وآثار آبائهم .

وأمر آخر يسترعى نظر مؤرخ الآداب الفارسية ، هو ظهور هذه الآداب فى الديار النائية عن البلاد العربية وعن بغداد حاضرة الخلافة والمدنية الأسلامية . اذ كانت هذه الديار أبعد من سلطان الأدب العربى الذى كان ترجمان حضارة الاسلام كلها حقبا طويلة . ثم استقلال الأمارات كذلك يبدأ فى الأقطار النائية ، وانما تنقص الارض من أطرافها . ومن أجل ذلك أتيح لخراسان البعيدة مهد أول دولة فارسية عظيمة فى العصر الأسلامى أن تكون مبعث الأدب الفارسى الحديث . ولم تنل هذا الشرف فارس مهد الدول القديمة على تبريزها فى العلم وتقدمها على خراسان فيه . حتى يقول ابو أحمد الكاتب كاتب الأمير اسماعيل بن احمد الساماني :

لا تعجبن لعراق رأيت له ... بحرا من العلم أو كنزا من الأدب
واعجب لمن ببلاد الجهل منشؤه ... إن كان يفرق بين الرأس والذنب

يريد ببلاد الجهل ما وراء النهر وجهات خراسان .

ولى المأمون طاهر بن الحسين خراسان ثم جعلها ولاية لذريته فاستمروا يلونها حتى سنة ٢٥٩ نحو ٥٠ عاما . ولكنها كانت أمارة صغيرة قصيرة المدة . وكانت الاسباب لما تتهيأ لانبعاث الأدب الفارسى . ثم بنو طاهر لم يعنوا بالأدب الفارسى . ويروى أن رجلا أهدى كتابا الى عبد الله بن طاهر وهو فى نيسابور فسأله ابن طاهر ما هذا ؟ قال قصة (وامق وعذراء) التى ألفها بعض الحكماء للملك أنوشروان . فقال الأمير نحن قوم نقرأ القرآن ولسنا فى حاجة الى غير القرآن والحديث . فالنا ولهذه الكتب التى ألفها المجوس ؟ ثم أمر فألقى الكتاب فى الماء . وأمر أن يحرق كل كتاب فى ولايته بلغة المجوس . ويقول عوفى عن آل طاهر : أنهم لم يكن لهم اعتقاد فى لغة الفرس .

وفى سنة ٢٤٧ ه سنة موت المتوكل ظهر فى الشرق يعقوب بن الليث الصفار وهزم جند الخليفة أول الأمر وقال — كما يروى نظام الملك — إنه يريد خلع الخليفة ، وكان شيعيا فيما يقال . وخلفه أخوه عمرو الى أن استنجد الخليفة المعتمد بنى سامان فهزموه وأزالوا دولته .

والفرس يرون فى يعقوب بطلا فارسيا لأنه أول ثائر على الخلفاء . أقام سلطانه على رغمهم أكثر من أربعين عاما . وقد سوغت لهم هذه العقيدة أن نسبوا الى طفل ليعقوب أنه نطق بأول بيت من الشعر الفارسى الحديث . وفى الحق أن بلاد الفرس لم تعد الى حكم الخلفاء الحقيقى بعد ثورة يعقوب

ولكن أول دولة فارسية عظيمة لها أثر يذكر فى الأدب الفارسى كانت الدولة السامانية . والسامانيون ينتسبون الى بهرام جوبين أحد أعيان الفرس الذى ثار أيام الساسانيين على كسرى برويز ، والبيرونى يؤيد هذه النسبة . وقد بعثت الآداب الفارسية مع هذه الدولة — فيما نعلم —

وبينما كان السامانيون متسلطين فى خراسان وما وراء النهر ظهر بنو بويه وعظم سلطانهم حتى استولوا على بغداد سنة ٣٣٤ ، وسافروا نسبهم الى بهرام كور أحد ملوك الساسانيين : وما زالوا يصرفون الأمور حتى أديل منهم للغزنوية ثم للسلاجقة .

ظهرت دولة بنى سبكتكين فى غزنه وأديل لهم من سادتهم السامانيين أو — كما يقول بديع الزمان

أظلت شمس محمود ... على أنجم سامان

وسبكتكين تركى لا فارسى ولكنه مكن لنفسه فى بلاد الفرس . وكان لدولته شأن عظيم فى آدابهم . وجاء السلاجقة فنسخوا كل هذه الدول . وكان لهم من السلطان وبسطة الملك ما لم يتح لدولة قبلهم من غير الخلفاء : وكان مع هؤلاء أو بعدهم دول ذات شأن : منها

الدولة الزيارية فى طبرستان التى منها شمس المعالى قابوس بن وشمكير وابنه منوجهر فلك المعالى وحفيده كيكاوس عنصر المعالى . ودولة ملوك خوارزم الصغيرة التى قضى عليها محمود وملوك خوارزم العظام الذين تسلطوا على معظم ايران قرناً وربع قرن والذين كانوا سبباً فى إغارة التتار وكانوا أول هلكاهم . والدولة الغورية التى قضت على الغزنويين فى أفغانستان

هذه هى الدول التى صرفت أمور الفرس منذ القرن الرابع الهجرى . ويرى منها أن الفرس لم يفلحوا فى إقامة دولة عظيمة تضم أرجاء بلادهم ، وإنما كان السلطان الشامل لدولتين تركيتين الغزنوية والسلاجقة ، وما عرفنا أن ثورات فارسية عظيمة حاولت التخلص من هاتين الدولتين . وهذه مسألة جديرة أن تغير آراء الذين يريدون تفسير كل حركة فى ايران فى تلك القرون بالعصبية الفارسية .

° ° °

الآن نرجع الى الأدب الفارسى نراقب منشأه ونتعقب تطوره منذ بدأ الى عصر التتار ؛ فاما ما بعد التتار فنرجىء الكلام فيه إلى مقال آخر .

انا لانعرف شيئا عن الشعر الفارسى قبل الاسلام حتى ليظن أن الفرس لم يكن لهم منه حظ كبير ، ولأمر ما نسب بعض كتاب الفرس أول شعر فارسى الى بهرام جور ، وقالوا : انه أخذ الشعر من العرب اذ تربى فى الحيرة . يذكر هذا محمد عوفى فى لباب الألباب وشمس قيس فى كتاب المعجم ، ويزيد الأخير أنه قرأ فى بعض الكتب الفارسية أن علماء عصر بهرام لم يستهجنوا منه إلا قول الشعر ، وأن آذرباد بن زرادستان الحكيم بالغ فى نصحه ليترك الشعر تنزها عن معايبه ؛ ثم يقول إن بهرام انتصح ومنع أولاده وذوى قرباه أن يقرضوا الشعر . ثم يقول : من أجل هذا كانت مدائح باربد وأغانيه عند كسرى برويز كلها منثورة لانظم فيها .

ويقول ابن قتيبة :

« وللعرب شعر لايشركها أحد من الأمم الاعاجم فيه على الأوزان والأعاريض والقوافى والتشبيه ووصف الديار والآثار . والجبال والرمال والفلوات وسرى الليل . والنجوم . وإنما كانت أشعار العجم وأغانيهم فى مطلق من الكلام « منثور » ثم سمع بعد قوم منهم أشعار العرب وفهموا الوزن والعروض فتكلفوا مثل ذلك فى الفارسية وشبهوه بالعربية . »

وأما فى العصر الاسلامى فلاريب أن الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب لايتقدمون العصر الساماني . غير أن فى كتب الأدب الفارسى روايات عن شعر قيل قبل هذا العهد ، وهى على علاتها لاتخلو من دلالة على أدب فارسى أقدم مما نعرف عسى أن يبينه التاريخ يوما .

يقول محمد عوفى معللا ظهور الشعر الفارسى الحديث ما يأتى مترجما مختصراً : « حتى اذا سطعت شمس الملة الحنيفية على بلاد العجم جاور ذوو الطباع اللطيفة من الفرس فضلاء العرب واقتبسوا من أنوارهم ووقفوا على أساليبهم واطلعوا على دقائق البحور والدوائر وتعلموا الوزن والقافية والردف والروى والايطاء والاسناد والأركان والفواصل . ثم نسجوا على هذا المنوال .

ثم يروى أبياتا أربعة لشاعر اسمه عباس مدح بها المأمون فى مرو سنة ١٩٣ منها :

كس برين منوال بيش أز من جنين شعرى نكفت
مر زبان پارسى را هست تا اين نوع بين

لیك زان كفتم من اين مدحت ترا تا اين لغت
كيرد أز مدح وثناء حضرت تو زيب وزين

وترجمتها :

ما قال أحد قبلى شعراً كهذا . وما كان للسان الفارسى عهد به . وانما نظمت لك هذا المديح لتزدان هذه اللغة بمدحك والثناء عليك .

فأعطاه المأمون ألف دينار عينا ، وبالغ فى إكرامه — يستمر عوفى فيقول : « ولم ينظم الشعر الفارسى أحد بعده حتى كانت نوبة آل طاهر وآل الليث فظهر شعراء قليلون ، فلما كانت دولة السامانيين ارتفع علم البلاغة ، وظهر كبار الشعراء »

ويروى شمس قيس : أن أول من قال الشعر الفارسى أبو حفص السغدى من سغد سمرقند وكان حاذقا فى الموسيقى ، وقد ذكره أبو نصر الفارابى وصور آلاته الموسيقية وقد عاش حتى سنة ٣٠٠ هو ينسب اليه هذا البيت :

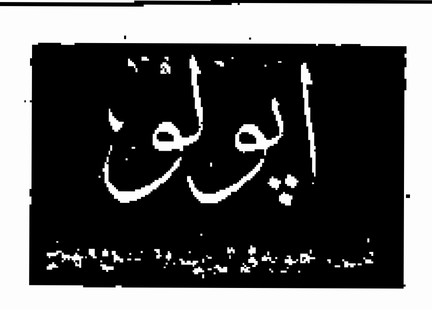
آهوى كوهى دردشت جكونه دودا ؟
جوندارديار بى يار جكونه رودا ؟

« كيف يعدو هذا الظبى الجبلى فى الصحراء ؟ ، انه لاحبيب له فكيف يسير بغير حبيب ؟ »

فاما رواية عباس المروزى فان المؤرخ الناقد يرتاب فيها لأن غريبا أن يبدأ الشعر الفارسى بهذا الأسلوب المتين ثم يصمت الشعراء أكثر من مائة سنة لايؤثر عنهم شىء . وأما رواية السغدى فراجعة الى العصر الذى بدأ فيه الشعر الفارسى وسجل لنا التاريخ بعض شعرائه .

ومهما يكن من شىء فاتفاق مؤرخى الآداب على أن أول شاعر فارسى عظيم هو أبو جعفر الرودكى شاعر نصر بن أحمد الساماني — الذى يسميه معروف البلخى (سلطان شاعران) ويقول فيه البلعمى : أنه لانظير له بين العرب والعجم ، ويعترف الدقيقى والعنصرى بتقدمه .

« يتبع »



الادب اليـــــابانى

للأسـتاذ أحمد الشنتناوى

كانت اليابان إلى عهد قريب محجوبة عن أنظار العالم المتمدين بحجب كثيفة لايكاد المرء يتبين ماجرى وراءها بين أبناء تلك الأمة العظيمة من عادات وتقاليد. وكان الأدب اليابانى نوع خاص من أغمض مظاهر الحضارة اليابانية أمام الباحث. ويرجع ذلك إلى صعوبة اللغة اليابانية وغرابة أحرفها الهجائية وعدم إقبال الأدباء والعلماء على تعلمها، مع أن الآداب اليابانية غنية فى مادتها متنوعة فى أبوابها، وتعد بحق بين الآداب العالمية الرائعة

وليس هناك أمة من الأمم تكون آدابها جزءا هاما من تاريخها مثل أمة اليابان، فأفراد الشعب هناك على اختلاف طبقاتهم يتذوقون الشعر ويطربون لموسيقاه. بل هم شعراء بسليقتهم لافرق فى ذلك بين النساء والرجال: فالأمة كلها تشترك فى مهرجان الشعر الذى يقيمه الامبراطور كل عام، فيأخذ كل يابانى فى إنشاد أطيب ماجادت به قريحته. ويذكرون أن الامبراطور «ميدى» Meidi وهو جد ميكادو اليابان الحالى كان يشجع هذه المهرجانات الشعرية. فيخصص الجوائز الثمينة للفائزين، وقد ألف هو نحو مائة ألف مقطوعة شعرية.

أما شغف اليابانى بباقى فروع الأدب فلا يقل عن شغفه بالشعر، لهذا كانت الآداب اليابانية غنية فى مادتها رائعة فى أسلوبها انسانية فى معانيها، ولكن تلك الآداب العالية لم تتخط حدود اليابان الجغرافية لصعوبة اللغة التى كتبت بها. ثم زاد من صعوبة تلك اللغة دقة المعانى وعمق الأفكار التى حملها اياها اليابانيون، والتى لاتصدر الا من أبناء الشرق الصميمين فى مدنيتهم الشرقية، ويكفى أن نقول ان كلمة «امرأة» لها فى اللغة اليابانية مايزيد على أربعة وعشرين لفظا مرادفا، كل لفظ يستعمل فى حالة معينة وظروف خاصة حسب مكانة المرأة المخاطبة الاجتماعية أو الشخصية، أو درجة الاتصال بها. كذلك لفظة «أنت» لها مايقرب من اثنى عشر مرادفا: وهذا التعدد فى الألفاظ يدلنا على مقدار الدقة التى يتوخاها اليابانى فى تعبيراته الاجتماعية والأدبية، وليس هذا فى نظرنا دليلا على رقى اللغة أو غناها فقط، انما يدل كذلك على الشعور الدقيق والحساسية الراقية، والآداب العالية هى فى لبها وجوهرها احساس دقيق وشعور متدفق.

واذا كان فن التصوير اليابانى له أثر واضح على الآثار الأوربية فاننا لم نسمع قط أن الآداب الغربية متأثرة بالآداب اليابانية، ولم يمنع هذا أن يكون العكس صحيحا. فالأدب اليابانى غاص بالتراجم العديدة لكثير من الآداب الأوربية العالية، فجميع المؤلفات القيمة من انجليزية وفرنسية وألمانية وروسية نقلت الى اللغة اليابانية. وهذا دليل واضح على تعلق هذا الشعب الناهض بالآداب على اختلاف مشاربها.

والعصر الذهبى للآداب اليابانية الكلاسيكية هو عصر «هايين» Heian ٧٨٤ – ١١٨٦ اذ انتعشت فيه الآداب اليابانية وظهرت فيه عدة قصص غرامية وتاريخية. كما أنه لم يخل من النشرات الأدبية الانتقادية. ولعل أهم مايلفت النظر فى ذلك العصر هو ظهور أديبتين يابانيتين شهيرتين وهما «موراساكى» Mourasaki و «سى» Sei وموراساكى اسم يابانى معناه زهرة البنفسج وصاحبته أديبة فى أسلوبها فخامة وحلاوة وعاطفة لينة بينما «سى» ومعناها النور تمتاز بشعورها الفياض وأسلوبها السهل الممتنع وأشهر قصة لموراساكى: هى قصتها المسماة «غنجى» Ghénsi وهى وصف محكم وصورة طبق الأصل وملاحظات دقيقة مدهشة عن الحياة فى البلاط اليابانى فى القرن الحادى عشر، وهى كثيرة الشبه بالحياة فى بلاط لويس الرابع عشر، وقد اتخذت لها بطلا اسمه «غنجى» وهو عبارة عن دون جوان آخر أى مخلوق حر بكل معنى الكلمة، يأتى مايشاء من الأفعال دون النظر اذا كان مايأتيه يتمشى مع الاعتبارات الدينية أو الانسانية أو الاجتماعية أو لايتمشى، انما كل همه ارضاء شهواته وملاذه. فكانت له عدة مخاطرات غرامية. وهذه القصة تعطيك صورة واضحة صادقة للحياة اليابانية الاجتماعية فى عهد «موراساكى»، ولاتسل عن العذوبة والروعة التى كتبت بها الحوادث الغرامية التى خاض غمارها «غنجى» وكل ذلك فى أدب وحشمة وتورع.

أما الأديبة الأخرى «سى» فكانت معاصرة لموراساكى وتعيش معها فى البلاط اليابانى، ولقد عرفت بالكبرياء والصلابة فى رأيها، وكتاباتها ملأى بالنقد والتجريح. كذلك كانت لها قدرة على وصف الطبيعة ومابها من حيوان وطير وصفا بليغا دقيقا

ولنذكر هنا قطعة لها قصيرة فى وصف فصول السنة الأربعة قالت:

ان الذى يسحرنى فى الربيع هو الفجر يتهادى فى مشيته على قمم الجبال، بينما كل شىء يصحو رويدا رويدا. وقطع السحاب اللازوردية تسبح فى الفضاء جماعات جماعات.........

أما فى الصيف فالذى يسحرنى فيه هو الليل.. يتجلى منه القمر المنير..! وتسحرنى الليلة الليلاء، حيث يطير فى جوها الحالك الحباحب المشعة هنا وهنالك.. واذا تساقط المطر فى تلك الليلة فانه يزيد فى جمالها وسحرها .

والذى يحزن فى الخريف هو المساء عند ما ترقد الشمس فى مغربها مرسلة سهامها اللينة نحو قمم الجبال العالية . فتسرع الغربان نحو أعشاشها تطير جماعات مثنى وثلاث ورباع ! حقا إنه منظر فيه حزن وجمال .... وما أجمل المنظر وأبهاه اذ لاح فى الأفق البعيد سرب من الطيور البرية الصغيرة ! .. بعد ذلك تختفى الشمس وتزأر الرياح وتخرج الهوام والحشرات من مخابئها صائحة مهللة . كل ذلك مما يهيج فى النفس ألما لذيذا ... والذى يحزن فى الشتاء هو سقوط الثلج اذا ما تنفس الصباح ، فتكتسى منه الأرض حلة بيضاء ناصعة . وعند ما يقر البرد توقد النيران للتدفئة ، حتى اذا ما انتصف النهار وخفت وطأة البرد ترى جمرات النار وقد تحولت الى رماد أبيض . وذلك هو الحزن بعينه ... ! »

وفى القرون الأربعة التى أعقبت عصر (هايين) نجد القصة والشعر اليابانى لا ينتقلان من مكانهما بعيدا . الا أننا نجدهما يتأثران بكثير آ بالفلسفة البوذية ، فينتعش الأدب التاريخى ويولد الأدب المسرحى فى اليابان . وأبطاله « كابوكى » Kabouki و « نو » Nô . وفى عام ١٦٤٢ يظهر فى سماء الأدب اليابانى « سيكاكو » Saikakou وهو أستاذ الأدب الواقعى فى اليابان ، وقد خلف هذا الأديب مؤلفات وافرة وتلاميذ كثيرين وكانت الآداب اليابانية قبل عهده تعد فى جملتها آدابا أرستقراطية كتبت لخواص الناس وأهل الثقافة منهم ، فأتى سيكاكو وجعل من الأدب اليابانى أداة للافصاح عن مشاعر الانسانية وعواطفها وهمومها وأحزانها أى تلك النواحى العامة التى قد يشعر بها رجل الطريق قبل أن يشعر بها رب الجاه والسلطان . وهو فى وصفه وتحليله لتلك العواطف الانسانية راعى الدقة التى يلاحظها النباتى فى وصفه لزرعه : أو عالم الحيوان فى دراسته لحشرة من الحشرات . وتظهر هذه القدرة بأجلى بيان فى قصته المسماة « حياة امرأة » وصف فيها سيكاكو كيف تكون حياة المرأة الخليعة المستهترة التى لا يهمها من عيشها الا اشباع شهواتها وقضاء ملاذها ، ولكن حياة الدعارة والمجون نهايتها دائما حزينة مبكية فنرى فى نهاية القصة تلك المرأة التى كانت بالأمس زينة المجالس وبهجة الناظرين تهجر العالم بعد أن عضها البؤس بنابه . وتنزوى بين منعطفات الجبال فى كوخ حقير من القش والخرق البالية ... !

ولعل « تيكاماتسو » Tikamtsou أشهر كاتب درامى فى اليابان . فهو يعد بحق شكسبير الأدب اليابانى . ولكنه اقتصر فى مؤلفاته على الاشادة بذكر العواطف الانسانية العالية وتحليلها كالحب والشرف والاخلاص والعفاف . ويعده البعض بين زمرة الشعراء لأن رواياته كتبها كلها نظما ولكننا لا ننسى أن معظم كتاب اليابان الأقدمين تنبوا آثارهم شعرا لأنهم عشقوا الشعر وطربوا لأنغامه الموسيقية فألهاهم ذلك عن كل شىء آخر . « وتيكاماتسو » هذا خالق الدرامة اليابانية التى تصف الحياة اليومية وتتغلغل فى أعماقها وتكشف عما بها من محاسن ومعايب . وتعبر عما تختلج به قلوب الآلاف من المظلومين والمساكين

ظل الحال على هذا المنوال حتى الثورة اليابانية التى شب لظاها عام ١٨٦٧ والتى يرجع سببها الى الروح الغربية التى بدأت تتسرب الى بلاد اليابان الهادئة المطمئنة حوالى ذلك الوقت . فتأثرت الآداب اليابانية كما تأثر الفن اليابانى . كذلك لم يسلم من هذا التيار الجديد الحياة الاجتماعية نفسها . فتغير سلوك الفرد ونظام الأسرة ، حتى المساكن وأنواع الأطعمة دخل عليها شىء كثير من التعديل والتغيير . وغذى المجتمع اليابانى شىء آخر جديد مغاير لليابان إبان عهد هايين أو سيكاكو . وبدأ الشعب اليابانى يقف على مسرح الحياة بنفسه بعد أن كان الى هذا العهد شاهدا متفرجا لما يقع بين ظهرانيه . اذ بعد أن هدأ تيار الثورة وخمدت الحروب الأهلية حوالى سنة ١٨٨٠ ظهر فى الأفق شعاع جديد لامع يبشر بمستقبل أدبى جديد لم تلبث أن أشرقت فى أثره شمس الآداب اليابانية الحديثة وهى موضوع الكلام فى مقالنا الثانى ان شاء الله ؟



قصة فيلسوف عاشق

الدكتور طه حسين

لا أعلم أن الفلسفة تحظر الحب على أهلها . بل الذي أعلمه أن الفلسفة حب كلها . وليس اسمها إلا لفظاً من ألفاظ الحب : ولكن هذا الحب اذا احتل قلباً شغله عن كل شيء . واستأثر بكل ما فيه من قوة وعاطفة وهوى . ولم يدع من ذلك للحياة اليومية العاملة إلا شيئاً يسيراً جداً .

فالفلسفة حب الحكمة . وهذه الحكمة شديدة الغيرة . شديدة الأثرة . لا تحب الشركة ولا ترضاها . ولا تسمح لعشاقها بأن يصفوا بودهم شيئاً أو أحداً غيرها . فمن فعل ذلك أو شيئاً منه . فليس هو من الحكمة في شيء : وإنما هو رجل مثلك ومثلي يغشى الأندية . ويضطرب في الشوارع . ويعيش مع الناس . وليس له حظ من المدينة الفاضلة التي يسكنها ويسيطر عليها عشاق الحكمة وحدهم .

لذلك كان أمر هذا الفيلسوف الذي أحدثك عنه عجباً من العجب . وفناً من هذه الفنون النادرة التي لا يظفر بها المؤرخون والقصاص إلا في مشقة وعسر . وإلا على أن تفرق بينها القرون الطويلة والعصور البعيدة . والذي أعرفه أن التاريخ لم يظفر قبل فيلسوف هذا العظيم بعاشق قد دلهته الحكمة . وعبث بلبه جمال إلاهتها العليا ؛ ولكنه على ذلك استطاع أن يشغف بالاهة أخرى يشركها مع هذه الالاهة التي كان يصورها اليونان في صورة أثينا ، تلك التي خرجت من رأس أبيها زوس . تامة الخلق . مكتملة الشباب . فيها جمال فتان ؛ ولكن فتنه تغلب بقوتها لا برقتها .

لم يعرف التاريخ عاشقاً من عشاق أثينا استطاع كما استطاع فيلسوفنا العظيم ، أن يشرك معها امرأة من النساء في حبه وهيامه ، وأن يختصها من هذا الحب والهيام بمثل ما اختص به إلاهة الحكمة نفسها . وأن ينتهي به الأمر الى أن يخلط ابنة زوس بابنة باريس . ويتخذ منهما شخصاً واحداً يعبده ويقدسه . ويصوغ له ديناً قويماً خصباً . ويحاول أن يبسط سلطان هذا الدين على الانسانية كلها . أو على الانسانية المسيحية على أقل تقدير .

أظنك قد عرفت هذا الفيلسوف . هو (أغست كونت) مؤسس الفلسفة الوضعية . وواضع علم الاجتماع . وصاحب السلطان العظيم على العقل الفرنسي ، ثم الأوروبي . ثم الامريكي . عصراً طويلاً من القرن التاسع عشر . وأظنك قد عرفت هذه المرأة التي زاحمت الفلسفة في قلب (أغست كونت) فكادت تغلبها عليه ، أو غلبتها عليه بالفعل ؛ ثم أصبحت إلاهة للفيلسوف يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . وكما كان الوثنيون من اليونان يعبدون أثينا أو أرتميس . ثم أصبحت إلاهة لجماعة من تلاميذ الفيلسوف المتفرقين في أطراف الأرض . ثم أقيم لها معبد لايزال يحج اليه الى الآن في باريس ، وأقيمت لها معابد متفرقة في أمريكا الجنوبية . حيث لايزال للفيلسوف أتباع يشايعونه في القسم المتطرف من فلسفته .

هذه المرأة هي (كلوتلد دي فو) وأظنك تطمئن الآن وقد سمعت هذين الاسمين ، الى أني لا أخترع ولا أتبع الخيال . ولا أضع قصة ؛ وإنما أكتب فصلاً من فصول التاريخ . وليس من الضروري أن يلجأ الكاتب الى الخيال والاختراع . ليستطيع أن يمتع قراءه . وأن يؤثر في نفوسهم ويثير فيها هذه العواطف الحادة المختلفة التي تبعث بها حين تحس لذة أو ألماً . وحين تجد حباً أو بغضاً . وحين تشعر بحزن أو سرور . فقد تكون الحقائق الواقعة أبرع وأروع من أحسن القصص الخيالية وأبدعها . ولكني في حاجة الى أن أقدم اليك شخص هذين العاشقين قبل أن أحدثك عن عشقهما . وأقص عليك ما كان بينهما من غرام .

نشأ أغست كونت مع القرن التاسع عشر . ولم يكد

يتوسط المعهد الثاني من غيره حتى ظهر تفوقه في العلوم الرياضية، ولم تكد تتقدم به السن قليلا حتى عرف له هذا التفوق. وإذا هو حجة في هذه العلوم. وإذا هو لا يقف عندها ولا يقتصر عليها؛ وإنما يفكر في الصلة بينها وبين بقية أنواع المعرفة الإنسانية من جهة. ويفكر من جهة أخرى في الحياة الأوربية المضطربة بعد الثورة والامبراطورية. فيحاول أن يضع ترتيبا جديدا للعلوم. ويوفق الى ما يريد. ويحاول أن يجد نظاماً جديداً تقوم عليه الحياة الأوربية. فيوفق أيضا. ويصبح لهذين النوعين من التوفيق صاحب الفلسفة الوضعية ومؤسس علم الاجتماع.

ولكن فلسفته الوضعية هذه، كانت حديثة ثائرة لا تستأثر بالقلوب استئثاراً مطلقا. ولا تقطع على أهلها سبيل الحياة. فسمحت لعاشقها (أغست كونت) أن يعيش كما يعيش الناس. وأن يحب كما يحبون. فعاش وأحب. ولكن أي عيشة وأي حب؟ تركت الفلسفة قلبه حرا، وشغلت عقله كله. فاختار في الحب بحسه وقلبه. ولم يختر بعقله. فيا بئس ما اختار! اختار امرأة جشمته الأهوال. وعلمته كيف تحتمل الآلام. وكيف يتجرع الانسان مرارة الغيظ: كانت هلوكا فاجرة. وخيل الى (أغست كونت) أنها نقية طاهرة. فأحبها وأظهرت له الحب، وخطبها فقبلت الخطبة، وتزوجها فقبلت الزواج. وما هو إلا وقت قصير حتى تبين من أمرها ما كره. فخاصمها وقاومته، وأنذرها فازدرته، وحاول أن يعاقبها فثارت به. وصبر الرجل وصابر حتى جن. وإذا هو يلقى نفسه في النار، وإذا الشرطة تنقذه وتدفعه الى المستشفى، فيقيم مع المجانين حينا ثم يفيق فيستأنف الفلسفة، ويستأنف التعليم، ويستأنف الحب والعذاب. ويجن مرة أخرى. ويفيق وتنقطع الصلة بينه وبين امرأته في غير طلاق، لأن القوانين الفرنسية لم تكن تبيح الطلاق يومئذ. فنشاطه إذاً موقوف على الفلسفة والتعليم.

في سنة ١٨٤٠ كان فيلسوفنا ممتحناً في مدرسة الهندسة Polytechnique. وكان بين الشبان الذين تقدموا إليه في هذا الامتحان غلام في الخامسة عشرة من عمره، هو (مكسيمليان ماري). رآه الأستاذ الفيلسوف وسأله. فأحبه وأعجب به. ورأى أن الخير في ألا يقبله هذا العام. فأجله سنة ثم قبله بعد ذلك، واتصلت بين الأستاذ وتلميذه محبة لم تلبث أن بلغت أقصاها. وإذا الفتى يميل إلى أستاذه وفلسفته وإلى الحرية خاصة. وإذا هو يستقيل من المدرسة ويتبع الأستاذ ويتلمذ له ويعيش من التعليم في المدارس الحرة على كره من أبيه. وفي سنة ١٨٤٤ يتزوج هذا الفتى ويعيش مع امرأته في بيت الأسرة، حيث يزوره الأستاذ من حين إلى حين. وهناك يلقى أخته (كلوتيلد) فلا يكاد يسمعها ويتحدث اليها، حتى تبتدىء بينه وبينها قصة الغرام.

وكانت كلوتيلد هذه في الرابعة والعشرين من عمرها ولكن حياتها كانت مثقلة بالخطوب. كان أبوها رجلا من الطبقة الوسطى. عمل في جيش الامبراطورية وارتقى في آخر عهد الأمبراطور إلى رتبة الكابتين، ثم سقطت الامبراطورية فأحيل إلى الاستيداع. وعاش من مرتبه العسكري الضئيل. وكانت أم الفتاة من أسرة شريفة من أهل اللورين. فنشأت (كلوتيلد) نشأة فيها بؤس وضيق: ولكن فيها احتفاظاً شديداً بتقاليد الطبقة الوسطى. ولم تكد تتجاوز الخامسة عشرة حتى زوجت من رجل يحمل اسما من أسماء الأشراف. ولكن حظه من الشرف كان قليلا، وهو (ميودي فو). اقترن بالفتاة وعين جابياً للضرائب. وقضى مع امرأته أعواماً لا هو بالسعيد ولا هو بالذي يمنح امرأته قسطاً من السعادة. ثم أصبح الناس ذات يوم، وإذا هو قد ذهب إلى سفر مجهول، وما هي إلا أن يبحث عنه ويفتش عن أمره، حتى يظهر أنه قد بدد أموال الدولة، وشيئاً كثيراً من أموال الناس في اللعب، ثم هرب من فرنسا، إلى حيث لم يعرف من أمره شيء.

فظلت هذه المرأة الشابة معلقة. لا هي بالمتزوجة، ولا هي بالمطلقة، محزونة، بائسة، لا أمل لها في الحياة. عادت إلى أسرتها تعيش بينها. وعكفت على نفسها تعيد وتبدئ ما يجول فيها من خواطر الألم والحزن، ثم أخذت تكتب ما تحس وتقيد ما تجد، وإذا هي كاتبة لها حظ من أدب ونصيب من خيال. وكان جمالها معتدلا لا إسراف فيه. وكانت المحنة قد أفادتها رصانة ورزانة، وأفاضت على شخصها شيئاً من الحب يعطف النفوس عليها، وأجرت في حديثها شيئاً من العذوبة الحلوة الهادئة، يحببها إلى القلوب.

فلما لقيها الفيلسوف في بعض زياراته لأخيها، نظر اليها فلم تكد تبلغ نفسه، ونظرت هي إليه فأنكرته وأكبرته. أنكرت شكله الدميم، وصورته القبيحة، وخلقه المضطرب المرتبك، وأنكرت صوته الغليظ، وحديثه المتكلف. ولكنها

أعجبت بذكائه ، وأكبرت عقله وفلسفته . وسكتت عنه وسكت عنها . وأتصلت الزيارات ، واتصل اللقاء . وأخذت نظرات الفيلسوف تستقر على الفتاة ، وأخذت أذن الفتاة تطمئن إلى حديث الفيلسوف ، ولكن أحداً منهما لم يشعر بأن صاحبه قد وقع من نفسه موقعاً خاصاً .

كان الفيلسوف يزور الأسرة ثلاث مرات فى الاسبوع ، وكان يجد لذة ودعة فى هذه الزيارة ، كان يلقى ثلاثاً من النساء : أم تلميذه وكانت مشغوفة بالتصوير . تحاول دائماً أن تصور الفيلسوف ، وزوج تلميذه وكانت موسيقية تطربه بالتوقيع على البيانو ، وكلوتيد أخت تلميذه وكانت أديبة تحدثه عن الأدب وعن قصتها التى أنشأتها وسمتها « لوسى » ورمزت فيها لحياتها الخاصة ، وربما أنشدته شيئاً من شعرها . ولم يكن الفيلسوف يحب الأدب ولا يحفل بالشعر ، ولكنه كان يجد لذة فى أدب كلوتيد ، ويذوق الجمال فى شعرها وإن لم يكن هذا الشعر جميلا ، وإن لم يكن مستقيم الوزن أحياناً . وكان الفيلسوف يتحدث إلى كلوتيلد عن فلسفته الوضعية ، وعن مجلداته الخمسة التى ظهرت تذيع هذه الفلسفة فى الناس ، وعن أنصاره وخصومه ، وعن دروسه فى الفلك . وكانت الفتاة تعجب بهذا كله ، وإن لم تكن بطبعها مشغوفة بالفلسفة . وكان الفيلسوف يلتمس إرضاءها والتقرب إليها على غير شعور منه ، فيذكر لها براعة النساء فى الأدب والفلسفة . وكان هذا الحديث يروقها ويتملق كبرياءها ، وكانت الفتاة تكبر فى نفسها حين ترى الفيلسوف قد رآها لثقته أهلا . وذات يوم سقطت على الفيلسوف من السماء سعادة لم يكن يقدرها ولا ينتظرها ولا يحسب لها حساباً . زاره تلميذه ومعه أخته ، وكان الفيلسوف فى جماعة من العلماء ، وكان الحديث علمياً عميقاً . فابتهج الفيلسوف وأعجبت الفتاة ، وجلست تسمع فى إكبار وتثاؤب خفيف لحديث العلماء ، ثم همت تريد أن تنصرف فجمع الفيلسوف شجاعته كلها فى يديه واستأذن الفتاة فى أن يزورها فى بيتها الخاص ، فأذنت . هنالك بدأت الخصومة بين آلهة الفلسفة وآلهة الجمال . هنالك اضطرب « اغست كونت » بين العقل والقلب ، وبين التفكير والحب . هنالك أخذ الفيلسوف يسأل نفسه : ما قيمة هذا العلم الخالص الجاف ؟ وما قيمة هذا التفكير العميق العقيم ؟ ومتى كان الرجل رجلا بعقله دون قلبه ؟ ومتى كان الانسان انساناً بالتفكير دون الحب ؟ إن الانسان لا يستطيع أن يفكر فى كل وقت ، ولكنه يستطيع أن يحب دائماً . وإذاً فقد تكون آلهة الفلسفة مسرفة فى الطغيان . وقد يكون من الممكن أن يتخذ « اغست كونت » رأسه معبداً لأثينا وقلبه معبداً لكلوتيلد .

وابتدأت زيارة الفيلسوف للفتاة فى بيتها . وإذا الحب يعلن ، وإذا الفيلسوف يلح فى حبه ويسلك إلى إقناع الفتاة بهذا الحب طرقاً ، منها الملتوى ، ومنها المستقيم . ولكن كلوتيلد لا تحب ولا تهوى ، إنما تعجب وتكبر . فهى ترده عنها فى رفق ، وتطلب إليه مودته دون حبه . فلا يكاد يعرف منها هذا حتى يضيق بنفسه وبالحياة ، وحتى تضيق به صحته ، ويعجز جسمه ورأسه عن احتمال هذا الخذلان ، فهو مريض يلجأ إلى السرير أياماً ، وهو مشفق أن يعاوده جنونه القديم . على انه يبل من مرضه ، ويحاول أن يجدد عهده بالفتاة ، ولكنها تحظر عليه زيارتها فى بيتها ، وتعده باللقاء عند أمها مرتين فى الاسبوع . فلا يكفيه ذلك ، فتعده بلقائه مرة ثالثة ، فلا يكفيه ذلك أيضاً ، وتتصل بينهما كتب فيها حوار حلو ملؤه الحنان حين يصدر عن الفتاة ، عنيف ممزوج ملؤه الفلسفة حين يصدر عن الأستاذ ، ثم يستحيل هذا الحب فى نفس الفيلسوف إلى شكل جديد ، فليس هو حباً عادياً كهذا الذى يكون بين الناس ، وإنما هو التقاء شخصين عظيمين قد خلقا ليلتقيا ثم ليتعاونا على إصلاح الانسانية وإنهاضها . هى اذن قد خلقت له ولن يدعها ولن يتخذ غيرها زوجاً اذا ماتت زوجه الثانية ، ثم تستحيل هذه العواطف ويستحيل هذا التفكير إلى فن من الفلسفة ، يضعه « اغست كونت » فى رسالة ، ويهدى الرسالة إلى الفتاة بهذا العنوان : « رسالة فلسفية فى التذكار الاجتماعى » . فى هذه الرسالة يتغير رأى « اغست كونت » فى المرأة ومكانتها الاجتماعية تغيراً تاماً . فقد كان منذ أشهر يكتب إلى تلميذه « ستوارت ميل » فيرى أن ليس فى المرأة أمل ولا خير . أما الآن فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً فى الاصلاح الاجتماعى الذى وقف نفسه عليه . وقد سرت الفتاة بهذه الهدية ، وكبرت فى نفسها

فزارت الفيلسوف مع أمها شاكرة له.

هنالك نشط الأمل وتجددت الحياة ، واعتقد الفيلسوف أنه سعيد . واستأنف الحاحه على الفتاة ، واستأنفت الفتاة مدافعته عن نفسها ، واحتالت فى ذلك حتى زعمت له أنها قد أحبت من قبله فتى كان لحبها أهلا ، وأحبها الفتى وسعد بهذا الحب ؛ ولكن لم يجدا الى الزواج سبيلا . لأن الفتى كان معلقاً مثلها يخاصم امرأته ولا يستطيع لها فراقا . فيئست من الحب والسعادة ، وأزمعت أن تنصرف عن لذات الحياة أبدا . ولكن الفيلسوف مغرم . والغرام لا يعرف اليأس ، وهو اذا كان صحيحاً قويا قد يتحول ويتشكل ، ولكنه لا يزول . وما الذى يمنع غرام كونت أن يتخذ شكلا فلسفيا ولو الى حين . لقد كان عود نفسه الحرمان منذ دهر طويل ، فألغى القهوة منذ عشرين سنة ، وترك التدخين منذ عشر سنين ، ثم ألغى النبيذ ثم ألغى الفاكهة ، ثم اتخذ ميزاناً يزن به ما يلائم حاجة جسمه من الطعام الخشن ، وكان ربما يكتفى بالكسرة من الخبز يتبلغ بها ، وهو يفكر فى اخوانه من الناس الذين قد لا يظفرون بمثلها . وما دام قد سيطر على نفسه الى هذا الحد ، وعودها هذا الحرمان فى الطعام والشراب ؛ فما له لا يزيد هذه السيطرة وماله لا يعود نفسه الحرمان لا فى الحب بل فى لذات الحب . إذاً فليق حبه قويا حارا ؛ ولكن ليظل هذا الحب نقيا طاهرا بجدبا من كل لذة ، ولينتظر ، وليجتنب اليأس . فكل شىء يدنى الفتاة منه ، وكل شىء يدنيه من الفتاة . لقد أصبحت زميلة له منذ نشرت بعض الصحف السيارة لها قصتها التى وضعتها عن نفسها فأصبحت كاتبة مثله تتحدث الى الناس فى الأدب كما يتحدث هو الى الناس فى الفلسفة . هما إذاً زميلان ، بل هما أكثر من زميلين ؛ فقد أخذت الفتاة تدنو من مذهبه فى الفلسفة ، وتحس ميلا الى آرائه الاجتماعية ، وتكون منه مكان التلميذ والنصير . فليحب إذاً وليصبر . وفى أثناء ذلك كانت أم الفتاة تقول لها : لولا أن مسيو كونت شيخ دميم لقلت انه يتملقك ويدور حولك كما يدور العاشقون حول من يحبون . ومع ذلك فان من الحق عليه لك ولنفسه أن يفكر فى أن هذه الزيارات المتصلة المنظمة ، لا تليق بك ولا به لأنها تخالف العرف المألوف أشد الخلاف .

« يتلى »

انظر مجلة الهلال التى صدرت فى أول فبراير سنة ١٩٣٣

الوادى[1]

للشاعر الفرنسى لامرتين

ان قلبى المكلوم ، المتقطع حبل رجائه حتى من الأمل ، لن يزعج الأقدار بعد الآن بابتهالاته كما كان يزعجها من قبل .

ولكن أيها الوادى ، يا مأواى فى أيام طفولتى ، افسح لى مجالا — ولو ليوم واحد — فأعيش فى ربوعك فى انتظار المنون .

* * *

هاهى ذى الطريق الضيقة المؤدية الى ذلك الوادى المظلم : هنا ، فى أحضان هذه الروابى ، تقوم أشجار تلك الغابات الكثيفة ، فترسل ظلها على وجهى الشاحب ، وتحوطنى بسكون مكر

* * *

وهناك جدولان يجريان تحت « جسور (٢) » من الأعشاب المخضوضرة ، فيرسمان فى انسيابهما تعاريج الوادى ومنحدراته . وتراهما بين الفينة والفينة ، يمزجان تموجاتهما الفضية بألحان خريرها العذبة ، ثم يتلاشيان قريبا من المنبع ، بعيداً عن أعين الناس .

* * *

وأيامى فى انسيابها أشبه بهذين الجدولين ! فهى تمضى وتتلاشى دون أن يشعر بها الناس ، ودون أن تحدث ذلك الخرير العذب ! أما نفسى الكئيبة المتاعة فهيهات أن تغنى بحياة يوم جميل من أيام حياتى .

*

ان خمائل الوادى الفينانة ، بظلها المخيم ، دفعتنى لقضاء النهار(٣) كله على ضفاف جداولها ، فنفسى الحساسة تغفو على أنغام خرير المياه ، كما يغفو الطفل فى مهده على صوت المناغاة .

* * *

هناك تحوطنى الطبيعة بأسوار من العشب الأخضر ، وبأفق محدود ، لكنه فسيح لناظرى .

١) نظم لامرتين هذه القطعة الشعرية الممتازة فى أواخر عام ١٨١٩ ، بعد أن نام فى الوادى الذى يعنيه Pérouillet سنة كاملة .

٢) أصل هذه الكلمة Ponts وقد احتفظنا بمناها الصريح .

٣) هنا يتذكر الشاعر يوما مشئوما كاد يموت فيه غرقا فى بحيرة صغيرة لولا نشاط أحد أصحابه إيمون فيريو .

انى أحب أن أثبت قدمى ، وأن أبتعد عن الناس لأسمع خرير المياه ، ولأتمتع برؤية السماء .

* * *

لقد رأيت فى حياتى أموراً كثيرة ، وشعرت باحساسات جمة . وملأت أيامى عشقا . والآن جئت أستوحى الطبيعة فى هدوئها الشامل . أيتها الأماكن البهيجة الجميلة ! كونى لى تلك الضفاف التى ينسى الانسان بقربها كل شىء . فقد أصبح سر سعادتى فى النسيان .

هنا يطمئن قلبى : هنا ترتاح نفسى : هنا تلفظ ضوضاء العالم البعيد أنفاسها الأخيرة كما يلفظ الصوت البعيد أنفاسه حين تمدده الشقة قبل أن يصل مع النسيم الى الأذن الحائرة .

* * *

من هنا ، ومن خلال هذه الغيوم الصافية . أرى ماضى حياتى يختفى فى ظلام دامس . تاركا فى نفسى ذكريات حية لحبى . كما تترك اليقظة فى نفس المستيقظ صور خيالات جميلة لحلم لذيذ قد استفاق منه .

* * *

يا نفسى ! خذى حظك من الراحة فى هذا المنزل الأخير كما يأخذ المسافر الطافح قلبه بالآمال ، حظه من الراحة ، قبل أن يدخل أبواب المدينة . يستنشق منها نسيم المساء المعطر .

*

ولننفض نعالنا كما يفعل هذا المسافر ، لأننا لن نمر ثانية فى هذه الطريق التى اجتزناها ملوثة بالغبار . ولنتذوق مثله أيضا ، فى آخر مرحلة من طريقنا ، هذا الهدوء الذى يبشرنا بضجعتنا الابدية .

* * *

أيها الانسان ! ان أيامك المعدودة ، التى تشبه فى حلكتها وقصرها أيام الخريف ، تنحدر بك كما ينحدر الظل على جوانب الهضاب . فالصداقة تخونك ، والرحمة تعرض عنك ، الى أن تتركاك فى طريق القبر وحيدا .

* * *

ولكن الطبيعة هنا تدعوك اليها لتبثك أشواقها ، فارتم فى أحضانها .

عند ما يقلب لك كل شىء ظهر المجن ، عند ما يخونك كل شىء ويعرض عنك ، ترى الطبيعة على حالها المعهودة . فالشمس نفسها تشرق طيلة أيام حياتك .

* * *

ان الطبيعة لم تزل كما كانت عليه بالامس . ترشدنا تارة بنور حقيقتها ، وتضللنا أخرى . فلا تأسف أيها الانسان لكل ما تضيعه من متاع الحياة الدنيا ، وتعال نعبد ذلك الصدى وألحان تلك الموسيقى العلوية كما كان يتعبدها « فيثاغورس (١) » من قبلك .

* * *

دع الطرف يناجى الغزالة فى سمائها نهارا . والاشباح فى محرابها ليلا : واسبح مع الغيوم على بساط الريح : واخترق غابات الوادى الظليلة مع أشعة ذلك الكوكب الخفى .

* * *

ان الله خصك أيها الانسان بالعقل والفطنة لكى تحقق بهما وجوده . فاستجله فى صحيفة الطبيعة ، فان فى سكونها وهدوئها صوتا يهتف باسمه .

من منا لم يسمع هذا الصوت يدوى فى أعماق قلبه ؟ .

بيروت — محمد كرما

---

(١) هو عالم وفيلسوف يونانى ، عاش فى القرن السادس قبل المسيح . تعشق الطبيعة ، وهو مدين لها بكثير من بحوثه العلمية كسرعة الصوت فى الهواء . وأسباب حدوث الصوت . الخ . . .

ooooooooooooo

غـــيرة

قد زرعنا بين أفواف الربا ... وردة الحب لاقبال الربيع
داعيتها عند إقبال الصبا ... نسمة الآصال والصبح الوديع

....

خلع الروض شذاه بعدما ... وحبتها اللون وجنات الحبيب
فهى كالنار ، ولكن عندما ... تشتهى الأفواه تقبيل اللهيب

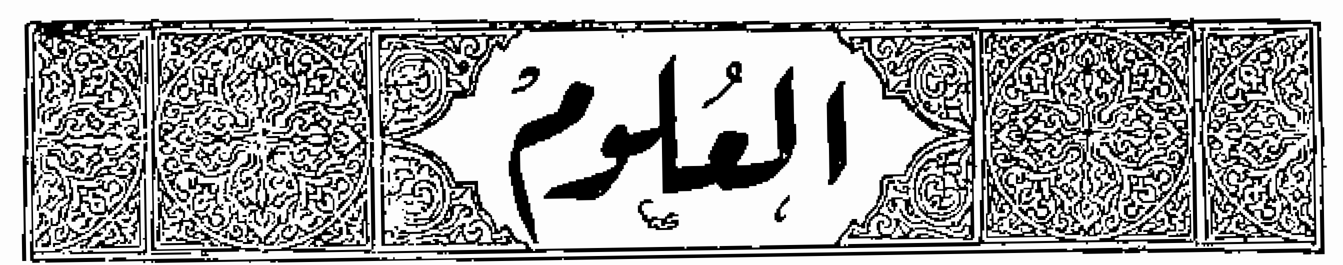
....

كان قلبى مسرح الود الندى ... وسقته العين أمواه الحياه
وعزيز أن أرى غرس يدى ... تحتويه بين عينى الشقاه

....

وردة الحب استباحت أدمعى ... وتولت عند إقبال الخريف
عذبت قلبى وأبكته معى ... وأرتنى كيف إذلال الضعيف

« محمود محمد منتصر »



أسرع كمرة فى العالم

صورة تؤخذ فى جزء من ٤٠٠٠٠ من الثانية

اذا أردت أن تصور جسما ثابتا، كتمثال من الحجر، كفاك فى ذلك ان تثبت أمامه كمرة غاية فى البساطة، تتكون من خزانة مظلمة، بسطحها القريب من التمثال عدسة تركز الأشعة المنبعثة منه على فلم حساس فى السطح المقابل من الخزانة. فترتسم عليه الصورة المرغوبة. ثم يستخرج الفلم فى الظلام ويثبت بالطرق المعروفة. ومن أهم الأمور التى يراعيها المصور مدة التجلية Exposure أى مدة تعريض الفلم للضوء. وهى تتوقف على أمرين: أولهما درجة احساس الفلم. وثانيهما شدة الضوء الذى ينير التمثال. وفى المثل الذى نحن بصدده يكفى أن يغطى المصور عدسة هذه الكمرة البسيطة بورقة مقواة سوداء. فاذا حان وقت التصوير جلى عن الفلم مدة ثانية أو ثانيتين أو ثلاث أو أربع حسب ضوء الشمس الحاضر، وذلك بازاحة الغطاء ثم رده سريعاً الى مكانه.

هب بعد ذلك أنك تريد تصوير رجل من لحم ودم، وهب أنك وقفته مكان التمثال وجليت عن الفلم ثلاث ثوان أو أربع، فهل ترى ما الصورة التى تخرج لك؟ صورة مغبشة على الأغلب لأن الانسان ليس له سكون الحجر، فهو لا يستطيع صبراً على الوضع الواحد. فيتحرك فيتخذ أوضاعا كلها ترتسم على الفلم فتخرج الصورة مبهمة الحدود متضاعفة الخطوط تختلط بياضها بسوادها. فتجد نفسك عندئذ فى حاجة الى تقصير مدة التجلية حتى لا يتحرك الرجل، ومعنى هذا أنك بحاجة الى زيادة حساسية الفلم، ومعنى هذا أيضا أنك بحاجة الى زيادة شدة الضوء. فبدل أن تصور فى نور الصباح الأول أو فى نور المساء الأخير. تصور والصباح ضاح مشرق، وعندئذ تكفيك بعض الثانية عن الثوانى الكثيرة

هب بعد هذا أنك تريد أن تصور رجلا وهو يسير، أو حيوانا كقطة أو كلب لا تستطيع أنت أن تريده على السكون، أو هب أنك تريد أن تصور حصانا وهو يجرى، أو طائرا إذ يطير، أو قطارا ينهب الأرض. فقد لا تنفعك تجلية الفلم ثانية أو عشر الثانية، فالقطار الذى يسير بسرعة ٦٠ كيلو متراً فى الساعة يقطع فى الثانية الواحدة نحوا من ١٧ متراً. فانظر كم صورة تنطبع عندئذ على الفلم فى الثانية الواحدة، وتخيل مقدار تغبش الصورة الحاصلة.

فكان لابد من تقصير مدة التجلية تقصيرا كبيرا كأن تكون مدة التجلية جزءا من مائة من الثانية أو من مائتين، ولما كانت اليد الانسانية لا تستطيع كشف العدسة وتغطيتها بهذه السرعة كان لابد من ابتداع غطاء تحركه قوة آلية كقوة الزنبركات مثلا. وتدخلت الكيمياء لتزيد فى حس الأفلام لكى تتأثر بالضوء فى المدة القصيرة الجديدة. وتقدم الانسان فى اختراع الكمرات السريعة حتى أصبح تصوير المتحركات أمرا سهلا لا يكلف تعبا ولا اجهادا. وأصبح مألوفا حتى لا يثير استغرابا ولا اعجابا. وصرنا نحلل بها حركات الحيوان لنعرف منها تفصيل سيره. ونحلل حركات الطائر لندرك منها كنه طيرانه، وصرنا نجمع هذه الوحدات التى تحللت اليها الحركة. والعناصر التى تقسمت اليها أفعال الحيوان والانسان، فنعرضها على الشاشة البيضاء متتابعة متواصلة. فنحكى من حوادث الوجود ما نشاء أين نشاء ومتى نشاء.

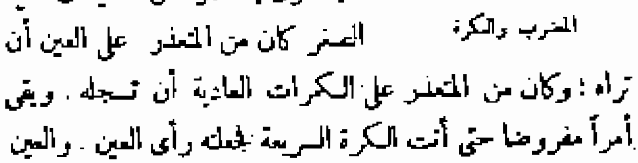
ولكن من حوادث الوجود ما يحدث فى مدد قصيرة تنافس العين فى لحظتها والخاطر فى لمحته. فلا بد من تقصير مدة التجلية إلى ما يسبق لحظة العين ويقاصر لمحة الخاطر. وإذن فلا بد من الزيادة فى حساسية الأفلام. ولا بد من زيادة الضوء حتى يزيد على ضوء الشمس. جد الباحث بعد الباحث، وعاون المفكر المفكر، وتضافر الطبيعى والكيميائى، والرجل النظرى والرجل التطبيقى: حتى جاءت الأنباء حديثاً بأسرع كمرة عرفها الزمن، كمرة إذا صدقت الأخبار العاجلة تصور الصورة فى جزء من أربعين ألفا من الثانية، اخترعها أستاذان من أساتذة معهد الصناعات بماساشوسيت بالولايات المتحدة. وهى تعتمد بالطبع على فلم شديد الحس. ولكن أكبر اعتمادها على دورة كهربائية تستطيع أن تحدث برقة ضوئية أسطع من شمس الظهيرة مرات وهى تعدل فى شدة ضوئها ٤٠٠٠٠٠ مصباح كهربائى مركزة كلها فى صعيد واحد، قوة الواحد منها خمسون وطا.

وقد استطاعا أن يصورا بها أموراً عدة لا تستطيع أن تصورها الكمرات السريعة المعروفة. نذكر من ذلك صورة للماء النازل

من الصنبور، فهذا يخرج تحت ضغط وتسير قطراته فى السيل المندفع بسرعة كبيرة. والى هذا فهى تتحرك فى كل جهة بحركات تختلف سرعاتها باختلاف تدافع القطرات واتجاهها، وتراها فى الصورة المرفقة كأنما قال لها الله اجمدى مكانك فجمدت، وتراها على غير ما تراها العين من الانسجام والملاسة.



الماء والصنبور



المضرب والكرة

ومن ذلك صورة المضرب إذ يضرب به اللاعب الكرة فى اللعبة المعروفة بالجلف، فانك ترى الكرة المصنوعة من المادة الصلبة القوية قد انبطحت من قوة الضربة، ولأن انبطاحها لا يستغرق إلا جزءاً من الثانية فى غاية الصغر كان من المتعذر على العين أن تراه؛ وكان من المتعذر على الكرات العادية أن تسجله. وبقى أمراً مفروضا حتى أتت الكرة السريعة فجعلته رأى العين. والعين جهيزة الحجج، إذا رأت قطعت قول كل خطيب.

على أنه لا يفوتنا أن ننبه الى أن كل صورة لشىء متحرك، مهما كان نوعها، وبأى كمرة صورت، ما هى الا مجموعة من صور لا حصر لعددها. هب أنك أخرجت يدك من جيبك فوضعتها تحت ذقنك؛ وهب أن هذا حدث فى ثانية واحدة، فانك لتجد يدك اتخذت عدداً من الأوضاع لا حد له. فما دامت يدك فى حركة مستمرة ففى كل من أجزاء الثانية، مهما صغر، وضع خاص به يختلف عن وضع الجزء الذى يليه من الثانية. ومن الطبيعى أنا كلما زدنا الثانية تجزيئاً زادت هذه الأوضاع عدداً. ولكن كذلك كلما زدنا فى التجزئة قل الخلاف بين أشكال هذه الأوضاع العديدة حتى تعجز العين الانسانية عن ادراكه. فصور الكرة السريعة المرفقة هى فى الواقع عدة من صور عجز حس الانسان عن ادراك الفروق بينها. فحس الانسان لدقائق المكان محدود، كما أن حسه لدقائق الزمان محدود.

ولعل هذا الثلم فى الاحساس نعمة من نعم الله. ولو أن هذه الحدة فى الاحساس بالزمان والمكان أعطيت لى هبة لترددت كثيراً فى قبولها. لأنى ان قبلتها لم أجد فى الكون شيئا ناعماً، حتى أكثر المرايا اصقالا تصبح فى عينى كسطح الصخرة المتهشم. ولأنى ان قبلتها ترائت لى الدنيا تموج بمخلوقات أنا الآن عنها أعمى. وتكشف لى فى طيات الدنيا التى أعرفها وفى حواشيها دنى أنا سعيد بجهلها. ولأنى ان قبلتها لم يكن للفظة السكون، وضع من قاموس لغتى. ولأصبحت أحس فى هدوء هذا الليل وأنا أكتب هذه الكلمة على مكتبى هذا الساكن، ولى حجرتى هذه الهادئة كأنى أكتبها فى عربة رجراجة من عربات الترام اذ تمر نهاراً فى أشد أحياء المدينة صخباً وجلبة. وأخيراً لأنى ان قبلتها وقبلت زيادة الاحساس بالزمن أصبحت ثانيتى ساعة وأصبحت ساعتى سنة وسنواتى ألوفا.

الانفلونزا أو النزلة الوافدة

للدكتور سامى كمال

النزلة الوافدة مرض مستوطن فى القطر المصرى، فلا يمر شتاء دون أن نسمع بعض إصاباته؛ لكن هذه الاصابات لا تأخذ شكلا وبائياً. وتظهر عادة فى فصل الشتاء مقرونة بسابق التعرض لبرد شديد أو للرطوبة، وعاقبتها دائماً حميدة.

وتظهر هذه النزلة الوافدة فى جميع أنحاء العالم، كما تظهر عندنا، ويكثر عدد المصابين بها فى البلاد الباردة. وتقل إصاباتها عادة عند حلول فصل الربيع.

وهى تنتقل بالعدوى بواسطة جراثيم خاصة؛ تلك الجراثيم عبارة عن بذور تتفاوت فى حيويتها وتأثير افرازاتها. لأن الجراثيم لا تؤثر إلا بفعل هذه الافرازات التى هى من أقوى السموم وأشدها فتكا بالانسان.

فاذا صادفت أجساماً قوية قاومتها. أما اذا عرضت لها أجسام ضعيفة فانها تقوى عليها، وتشتد بانتقالها على غيرها، وتزداد قوة اذا تهيأت لها ظروف خاصة. كما حصل ذلك فى نهاية الحرب العظمى عام ١٩١٨ اذ وجدت الانسان ضعيفاً جائعاً منهوك القوى والأعصاب ففتكت به. ومات بالنزلة الوافدة فى العالم عدد يفوق عدد من مات فى ميادين القتال.

هنا تكون وبالا، وهنا تكون خطراً على العالم أجمع، حيث تنتقل مع المسافرين بسرعة الطائرات والسيارات.

وهذا النوع من النزلة الوافدة الوبائية يسمى عادة باسم

الوطن الذى نشأ فيه . فى عام ١٩١٨ كانت اسبانية . وهى فى هذا العام انجليزية .

وكل الأخبار تدل على أن خطر هذه الوافدة الانجليزية أقل بكثير من سابقتها الاسبانية . وأوبئة الوافدة تتشابه فى مجموعها من حيث الأعراض . لكنها تتفاوت من حيث مضاعفاتها وخطرها على العموم .

ومدة حضانتها ، أى من وقت العدوى إلى وقت ظهور أعراضها لاتزيد على اليومين .

أما أعراضها فزكام واحتقان فى أغشية الحلق والمجارى الهوائية مع قشعريرة وحمى وشعور بتكسر فى الجسم وعطس وسعال ، وهى سريعة العدوى خصوصاً لأن أكثر الناس لايعتكفون فى دورهم عند الاصابة بها ، بل يستمرون فى مزاولة أعمالهم ، يذهبون ويجيئون ويختلطون بالناس .

وهم لو عرفوا كيف تحصل العدوى وعزلوا أنفسهم فى بيوتهم وحجراتهم لدرأوا عن أنفسهم وعن عائلاتهم وعن مواطنيهم شر هذا المرض .

ان العدوى تحصل بواسطة العطس أو السعال اللذين ينقلان جراثيم المرض مباشرة الى السليم .

لذا يتحتم على المريض أن يتحاشى العطس أو السعال فى وجه الناس وليفعل ذلك يميناً أو شمالا .

كذلك من يخالط المرضى يجب عليه أن يحتاط بوقوفه جانبا غير هياب ولا وجل ، يخدم فى رفق ثم يغسل يديه ، ويستعمل مطهرات الفم والأنف . ويجب أن تكون غرفة المريض معرضة لأشعة الشمس يتجدد الهواء فيها مراراً كل يوم ثم يلازمها المريض عند أول الشعور بالمرض ، ويستعمل الأطعمة السائلة والمعرقات والمشروب الساخن وهو خير علاج بجانب الاسبيرين والكينين عند الاحتياج حسب أمر الطبيب مع استعمال مطهرات الأنف والحلق .

ومن خير الاحتياطات الابتعاد عن حضور الاجتماعات العامة خصوصاً فى المحلات المغلقة ، واستعمال مطهرات الأنف كزيت الاوكالبتوس صباحاً ومساء . ومطهرات الحلق مثل الماء المضاف اليه نقط اليود والابتعاد عن المرضى ؟

بحوث مصائد الأسماك وماهيتها

للدكتور حسين فوزى

مدير ادارة ابحاث المصائد

ليس المخلوق الحى مع ماهو عليه من مظهر الوحدة سوى مجموعة مركبة من مواد عضوية وغير عضوية ، تربطها بعضها قوى طبيعية هى نفس القوى الصادرة عن الكون المحيط بها . لذا يتقدم الباحث لدراسة هذه المجموعة كوحدة حية أولا ، ثم كجزء من ذلك الكل أو الوسط الذى يعيش فيه ثانياً وقد أطلقت كلمة بيولوجيا «علم الحياة» على مجموع هذه الدراسات : دراسة أشكال المخلوق الحى وأوضاعه فى الفضاء وهى « المورفولوجيا » ودراسة أوصاف أجهزته وأعضائه وهى « علم التشريح » والبحث عن تطور هذا المخلوق من البويضة حتى يصبح كامل الخلق وهو (الامبريولوجيا) « علم الأجنة » ودراسة وظائف أجهزته وأعضائه وهى (الفيزيولوجيا) . ودراسة الحياة وقوانينها وتطوراتها الكونية . والوسط الذى تعيش فيه المخلوقات باحثة عن غذائها ، والغازات الضرورية لتنفسها ، وكذا أثر هذا الوسط فيها . وتوزيعها حسب تطوراته . تلك هى (الأيكولوجيا) .

والأحياء المائية تتميز من غيرها بأن الوسط الذى تعيش فيه هو الماء . وهذا النوع من الحياة هو أهم الفروق بينها وبين الأحياء الأخرى . لأنها فيما عدا ذلك تتنفس وتتغذى وتتناسل وتؤدى أعضاؤها نفس الوظائف التى تؤديها الأحياء الهوائية . وانما تتطور هذه الوظائف ويتطور شكل المخلوقات المائية تبعا للوسط الذى فرض عليها مظاهرها الخاصة .

والأسماك فصيلة من المخلوقات المائية استرعت اهتمام الانسان منذ أقدم العصور لأنها مصدر هام لغذائه . فالانسان منذ النشأة الأولى كان صيادا قنصا . على أنه ثمت أحياء مائية أخرى انتفع بها الانسان أما لغذائه أو لأغراض نفعية أخرى . نكتفى منها بالاشارة الى الصدفيات (كالجندوفلى وأم الخلول) . وذوات القشور (كالجمبرى واللانجوست) لغذائه . والى الاسفنج وحيوانات اللؤلؤ والمرجان والسلاحف المائية والتماسيح (الباغة والجلود) لزينته ونظافته . والى الدرافيل والحيتان لصنع الجلود واستخلاص الزيوت . والى بعض الأسماك لاستخلاص سماد « الجوانو » والغراء الجوانو والمستحضرات الطبية كزيت كبد البكلاه (زيت كبد الحوت) والى الأعشاب البحرية التى يستخرج منها اليود وينتفع بها فى الأسمدة .

وتقصر هذا المقال على بحوث الأسماك وهى بحوث يمكن تطبيقها على الأحياء المائية الأخرى مع بعض تغيير فى الطرائق يقضى به تكوينها المختلف ونوع حياتها الخاص .

أول ماينبغى به من يدير شأنا من الشؤون كمنجم أو بحيرة هو أن يعرف مايحويه المنجم من معادن فى طبقة مخصوصة . أو مايعيش فى البحيرة من مخلوقات نافعة أو ضارة . لذا كان أول مايهم خبير المصائد هو أن يستعرض المخلوقات التى تعيش فى مياهه فيعمل لها سجلا . وعلى أساس هذا السجل يستطيع أن يتعرف طرائق بحثه . وان مؤلفا جليلا مثل «أسماك النيل» (لبولانجيه) أو «أسماك البحر الأحمر» لكلونتسنجر . لمحاولة موفقة فى هذا السبيل . فعلى خبير المصائد أن يجمع المعلومات من المصائد المصرية المختلفة عن أنواع الأسماك التى تدخل أسواقنا ، بل والأنواع الأخرى التى لايهتم بها صيادونا أو لايعرفون طرق صيدها . وليس عمل قائمة بجميع أسماك المياه المصرية سهلا كما يتراءى لأول وهلة . فقد ظهر كتاب «وصف مصر» الذى قامت به البعثة الفرنسية الملحقة بحملة بونابرت الى يومنا هذا لم تبلغ بعد قائمة أسماكنا حد التمام خصوصا فى البحرين الأحمر والابيض . فثمت أسماك لايعرف صيادو البحر الابيض طرق صيدها (وأخصها الاسماك الرحل) . كما أن طرق الصيد فى البحر الاحمر لا تزل على حال من البساطة يتعسر معها الحصول على جزء كبير من الاسماك التى تعيش فى ذلك البحر .

فامام أخصائى المصائد فى مصر سنوات طويلة يقضونها فى البحث المتواصل حتى تتم قائمة الاسماك المصرية مرتبة حسب الانواع والفصائل والاجناس . كما ينبغى أن تدعم هذه القائمة بمتحف كامل يضم نماذج من جميع أسماكنا جيدة الحفظ جلية العرض .

كذلك يعنى الاخصائى بمعرفة مواطن الاسماك . فثمت أسماك تقطن الماء العذب وأخرى تقطن الماء الأجاج . وغيرها تعيش فى البحار أو تتنقل بين الماء العذب وماء البحر . ومن الاسماك البحرية ماتعيش على القاع . وتفضل نوعا من القاع . رمليا أو صخريا أو طينيا . ومنها ماتغشى الصخور وفرجاتها . ومنها ماتعيش فى طبقات الماء العليا أو السفلى متنقلة بين مناطق البحر سريعة الحركة .

وفى مياه النيل يهمنا أن نعرف مواطن كل نوع من أسماكه . تلك التى تأوى الى الحشائش أو تعيش على القاع الطينى . وتلك التى تقاوم التيار أو تقاوم كثرة من الملوحة تسمح لها بالحياة اذا ماوصلت مع المصارف الى بحيراتنا ذات الماء الاجاج .

فاذا عرفنا مواطن كل نوع من السمك وجب علينا أن ندرس توالده . فعندما تبلغ الاسماك طولا معلوما تختلف باختلاف الانواع يصبح جهازها التناسلى فتفصل مبايض الانثى بأجسام كروية بادية للعين المجردة كما يظهر ذلك بمجرد قطعة من الطازج . وليست هذه الا مبيضا مثقلا ببويضات أنثى البورى الناضجة . واذ تنضج الانثى فهى بادئة بالبيض . وذلك بأن تلقى بالآلاف من بويضاتها فى الماء . إما على قاع رملى أو طينى . أو بين الحصى أو الاعشاب المائية أو فى شقوق الصخور . أو فى أوكار محفورة فى الطين . أو بين طبقتين من الماء حيث تبقى البويضات عائمة بفعل ثقلها النوعى وكذا ينضج الذكر عند طول معلوم يقرب من طول الانثى . ويغلب أن يكون أقل قليلا . وينتج جهازه التناسلى خليات سريعة الحركة لاتراها العين المجردة . ففى موسم التوالد تتآلف الذكور والاناث ، فما تكاد تلقى الانثى بويضاتها فى مكان من الامكنة التى سلف ذكرها حتى يتقدم الذكر الى ذلك المكان ليلقى بملايين من تلك الخليات السريعة الحركة بجانب البويضات التى لاحراك بها . وتسرع تلك الخلايا الى الاندماج فى البويضات . وقد يجتمع للبويضة بضعة من تلك الخلايا . فلا ترضى منها بغير واحدة تتغلغل داخلها وتمتزج بها كل الامتزاج وينبعث من هذا الاتصال فى البويضة حياة جديدة اذ تنقسم — وهى خلية واحدة — الى ملايين من الخلايا تتطور حتى تصبح مخلوقا صغيرا لايشبه والديه فهو محوط بغشاء رقيق هو غشاء البويضة الخارجى يذيبه ثم يخرج الى الماء مزودا بكيس محى يكون غذاءه فى الايام الاولى . فاذا مانفد ذلك الغذاء أصبح الجنين سمكا صغيرا يسعى وراء غذائه . وهو لايزيد طولا على بضع ملليمترات . ولا يزال يكبر حتى يبلغ بدوره الطول الذى تنضج فيه أعضاؤه التناسلية ان ذكرا وإن أنثى .

على أن السمك وقد بلغ ذلك الطول لا يبيض طوال السنة . لان عملية نضوج الجهاز التناسلى عملية دورية تبلغ تمامها فى وقت معين من السنة يختلف باختلاف الانواع : فمن أسماك تبيض فى الشتاء وأخرى فى الربيع أو الخريف أو الصيف . وقد يستمر بيضها أياما أو شهورا . وكذا ينضج الذكر تطورا موازيا لتطور كل أنثى من نوعه

وتهم أمثال هذه الحقائق — كمعرفة عمر الاسماك والطول الذى ينضج عنده جهازها التناسلى — من أهم القواعد التى يستند عليها التطبيق العملى . لانه لما كان من الضرورى أن يسمح لاكبر عدد من الاسماك بالتوالد وجب أن نعرف وقت هذا التوالد حماية النوع برد عادية الصياد عنه . وهذه الحماية لا تتناول الابوين فحسب بل يجب أن تتناول البويضات وأفراخها

ولذا كان من المهم أيضاً معرفة المناطق التي يغشاها الاسماك وقت التوالد فيمنع الصيد فيها. من ذلك مثلا أنواع البلطي التي تبيض وتفرخ بين الحشائش المائية (كالبردى) فيجب ابعاد الصيادين عن تلك المناطق أثناء موسم التوالد.

ومن أسماكنا كالبورى والطوبار ما يترك الماء العذب أو البحيرات الشاطئية ليخرج الى البحر فيفرخ.

ولما كان مخرج هذه البحيرات الى البحر بوغازاً ضيقاً. أصبح واجباً منع الصيد بتاتاً فى البواغيز الموصلة بين البحيرة والبحر للسماح للبورى والطوبار بالخروج الى البحر، ولافراخه — وهى تقدر بالملايين — بالعودة الى البحيرات

كأننا بهذه المعلومات البيولوجية استطعنا أن نفى بالشرط الاول من شروط علم الحيوان التطبيقى. وهى حماية النوع بمساعدة الطبيعة فى مجهودها نحو بقائه.

على أن هذه المعلومات يمكن الانتفاع بها على وجه آخر. إذ يمكن للاخصائى أن يقلد الطبيعة فى عملها باعداد أمكنة خاصة لافراخ الاسماك. وتعهدها بالعناية، وذلك برد أعدائها عنها وتغذيتها تغذية تساعد على نموها العاجل. كذلك يستطيع نقل الاسماك من جهة تكثر فيها الى جهة صالحة لنموها وتوالدها ولكنها فقيرة منها.

وفى البحار تتخذ هذه المسائل طابعها الخاص. ولكن الدراسة تقضى هنا أيضا بتعرف حياة الاسماك البحرية من سرعة نموها الى أمكنة توالدها الى هجرتها.

لقد كان حديثنا حتى الآن عن السمك نفسه تلك الوحدة الحية التى ليست سوى جزء من كل. وهذا الكل هو الوسط الذى يعيش فيه الاسماك ولها به صلات وثيقة. لذا كانت دراسة هذا الوسط تعادل فى الاهمية دراسة السمك نفسه. هذا الوسط متجانس ظاهراً. ولكن كم من العوامل تجعل من هذا التجانس الظاهر اختلافات عديدة. ومن الطبيعى أن يتأثر المخلوق المائى بتلك العوامل. لقد كانت جميع المخلوقات فى ظلام التاريخ الجيولوجى تعيش فى الماء مرنة التكوين سهلة التأثر بالعوامل المحيطة. وقد احتفظت المخلوقات التى لا تزال تعيش فى الوسط المائى بتلك المرونة التكوينية التى كانت الاصل فى تعدد الانواع. ودراسة الوسط المائى دراسة تفصيلية تلقى ضوءا جديدا على عوامل التطور

على أن لهذه الدراسة أهميتها العملية. فالوسط المائى يشطر أعمال الاخصائى شطرين — بيولوجيا المياه البحرية، وبيولوجيا المياه العذبة. وقد يتصل الشطران اذ يختلط وسط بآخر كما يحدث ذلك فى بحيرات الساحل أو يختلط بحران من تكوين وطبيعة مختلفين كما حدث ذلك بعد حفر قناة السويس.

ما منشأ اختلافات المياه العديدة والماء وسط متجانس؟ أولها وأهمها وجود المواد الذائبة فيه. وينشأ عن وجود هذه المواد ظواهر كيميائية طبيعية أهمها « الأسموز » ومن أظهر المواد الذائبة فى البحار كلورور الصوديوم والمخلوق المائى يعيش فى حالة توازن كيميائى طبيعى مع الوسط المحيط به. ولقوة الأسموز اليد الطولى فى هذا التوازن. فاذا نقلنا سمكة من أسماك الماء العذب الى البحر اختل هذا التوازن. وعجزت السمكة عن مقاومة هذا الاختلال طويلا ثم ماتت. وكذا العكس.

على أن هناك غير قليل من الاسماك دخلت من البحر الى البحيرات الساحلية. وتعودت مياها أقل ملوحة من مياه البحر. بل قد تصل فى عذوبتها الى مايدنيها من مياه الأنهار. بل هناك أسماك تتحمل الحياة فى الماء العذب والبحر على السواء. على أن تلك الأسماك البحرية التى تعودت الحياة فى الماء العذب أو الأجاج تدفعها فطرتها الى العودة الى البحر لتفرخ. وإذا امتنع عليها الوصول الى البحر أصابها العقم. وتلك حالة ثعابين السمك (الانقليس) والبورى والطوبار من أسماكنا المصرية.

ويعرف سكان المنزلة والبرلس وأدكو تلك الظاهرة حق المعرفة. إذ تخرج آلاف البورى والطوبار الى البحر فى مواسم معينة يطلقون عليها « الخرجيات »

وقد اكتشف الأستاذ (يوهانس شميدت) اكتشافا يعد من أغرب ما وصل اليه الكشف العلمى فى البحار. وهو أن ثعابين السمك التى تعيش فى الانهار والبحيرات الاوربية تخرج الى عرض الاقيانوس الاطلنطيقى لتفرخ قرب جزر (الانتيل) عند منطقة تسمى بحر سارجاس.

وتهاجر ثعابين السمك الامريكية شرقا لتلتقى بثعابين السمك الاوروبية فى منطقة بحر سارجاس.

فاذا انتهى موسم الافراخ اتجهت أفراخ الثعابين الاوربية شرقا وأفراخ الثعابين الامريكية غربا حتى يصل كل منها الى قارته. فيدخل الانهار فى شكل أسماك مستديرة زجاجية بيضاء اللون. وهى ما تسمى بالحنكليس. وتعرف مصر هذه الظاهرة. أى خروج ثعابينا الى البحر وعودة آلاف الحنكليس الى البحيرات الشاطئية ودخولها نهر النيل.

وتلك ظواهر نراها رأى العين فى مصر. ولو أننا لانزال فى شك عما إذا كانت الثعابين المصرية تفرخ وسط الاطلانطق أو

فى البحر الابيض المتوسط .

لقد أوردنا تلك الامثلة لنبين الى أى حد وصلت مرونة تلك الاسماك فى تقبلها تغير قوة الاسموز .

كما يهم الباحث معرفة الاكسجين الذائب فى مياه ما . لانه يتوقف عليه تنفس الاسماك . ألا أن احتياج نوع من السمك الى كمية من الاكسجين لايوازى احتياج نوع آخر . فقد يموت نوع اذا هبط مقدار الاكسجين الذائب الى ٤ جرامات فى اللتر مثلا . بينما يقاوم نوع آخر حتى يبلغ الاكسجين جرام ونصف فى اللتر . ثم تبدو عليه علامات الضيق . حتى يموت .

ولكل هذا أثره فى مواطن الأسماك . أسماك لاتعيش الا فى مجارى المياه الجبلية حيث المياه جارية تذيب فى تدفقها كمية كبيرة من الأكسجين . وأفضل مثل على هذا سمك (التروتا) المعروف فى البلاد ذات المجارى السريعة الجبلية كسويسره واسكتلندا وكندا الخ .. وأسماك تعيش فى الأودية كسمك الكارب والتانش فى أوروبا وجميع أسماك مياهنا العذبة .

كذلك يهم الباحث معرفة درجة حرارة المياه وحركاتها كالتيارات والمد والجزر لان لكل واحدة من هذه المسائل أهميتها فى دراسة الأسماك . فهذا النوع يفرخ أذ تصل حرارة المياه التى يعيش فيها الى درجة معينة . وذاك النوع يغشى المياه الهادئة كى يفرخ فى مأمن من التيار الخ . .

وقد سبق الكلام عن أهمية دراسة القاع لمعرفة الأنواع التى تغشاه ، ودراسة القاع تدخل ضمن علم الصخور وهو فرع من الجيولوجيا .

ودراسة غذاء الأسماك يتطرق بنا الى دراسات بيولوجية أخرى . فعلينا أن نعرف نوع الغذاء . فمن أسماك تتغذى على أسماك أصغر منها . أو حيوانات صدفية أو ذوات القشور أو ديدان . الى أسماك لا تتغذى الا بالنباتات المائيه .

وعلى أخصائى الأسماك أن يعرف جميع الأنواع التى تكون ذلك الغذاء ، وحياة هذه الأنواع . ومما لاشك فيه أن لنوع الغذاء أثرا واضحا فى شكل الأسماك . فتلك الانواع التى تحتاج فى غذائها الى المطاردة السريعة يتخذ جسمها الشكل المغزلى . وهو أوفق الأشكال للحركة السريعة . كما نرى فى التونة والبلاميطة . وتلك الانواع التى تجد غذاءها على القاع يتطور شكلها تبعاً لحياتها الهادئه . فهى مفرطحة كما نرى ذلك فى سمك موسى وأشباهه .

ولا يستطيع خبير المصائد أن يقرر صلاحية بحيرة أو بركة لتربية نوع خاص من السمك قبل أن يقرر نوع الغذاء الذى يقتات منه . بل وأفضل تغذية تعجل فى نموه وتكسب لحمه صفات شهيه .

ويغنانى هذا المقال أن نمر سراعا على شتى المسائل التى تتناولها بحوث مصائد الأسماك . وهى متعددة الوجوه لا يستطيع فرد واحد أن يضطلع بها ، بل هى فى حاجة الى فرقة من اخصائيين ذوى ثقافة علمية نوعيه تشمل علوما مختلفة منها التاريخ الطبيعى بأنواعه « علم الحيوان والنبات والجيولوجيا » وعلوم الكيمياء والطبيعة . وعلم الأرصاد الجوية ومبادىء الأحصاء .

على أننا لم نأت على آخر ما يتعين على أخصائى بحوث المصائد أن يعرفه . أذ أن هذه العلوم تقع فى تطبيقها العملى الظروف الخاصة بكل أقليم .

ولنضرب مثالا لذلك نظام الرى فى مصر . من رى الحياض وما اليهم بيارات وقنوات . ورى الدلتا بترعه ومصارفه واتصاله بالبحيرات الشاطئية . وأثر الخزانات والقناطر . تلك مظاهر مائية تكاد تكون خاصة ببلادنا . وهى لهذا تفتح أمام خبير المصائد فتحا جديدا فى التطبيق العلمى . أذ من العبث أن يطبق الأنسان بلا تبصر طرائق بلاد على بلاد أخرى . وأنما عليه أن يجد لكل حالة مايلائمها معتمدا على دراسة متينة . وتجربة متعددة الوجوه . وفهم للظواهر الخاصة بالبلاد ؟



مشاهـــــدات غريبة

للأستاذ محمد احمد الغمراوى

أستاذ الكيمياء بكلية الطب

١

فى منجـــــم

كانت ليلة السبت ١٨ فبراير سنة ١٩٧٨ موعد انعقاد الجمعية الطبيعية الكيمائية فى الكلية، وكان المقرر أن يذهب أعضاؤها لزيارة منجم فحم على بعد ميلين أو ثلاثة من نوتنجهام. فبعد أن تناولنا الشاى بالكلية خرجنا ومعنا الرئيس الاستاذ بارتن (١) فركبنا الترام الى المنجم، وهناك وجدنا بعض رجاله ينتظروننا، فقيل لنا انه لا بد من أن يحمل كل منا مصباحا يستضىء به، وقادونا الى غرفة المصابيح أو بالأحرى مخزنها، وقد ذكرنى حين دخلته بمخزن القناديل فى مسجد البلد أيام كان المسجد يضاء بالقناديل، فقد كانت رائحة الزيت المحترق تفوح من المصابيح الموقدة المصفوفة. وكان كل مصباح عبارة عن فتيلة داخل اسطوانة قصيرة من الزجاج متصلة من أعلاها بمخروط ناقص من شبك الحديد، يظاهره مثله من صفائح النحاس، وهذا ينتهى بعلقة يحمل منها المصباح تلتقى عندها أسلاك تتصل بالقاعدة وتصون زجاجها. هذا هو مصباح (داڤى) اخترعه السير (همفرى داڤى) لأول مرة سنة ١٨١٥ وهو على بساطته جم النفع، لأن شبكته الحديدية تحول بين اللهب: لهب المصباح — أو لهب ما قد يدخله من غازات ربما تصاعدت من شقوق يصيبها العامل فى اقتطاعه الفحم — وبين أن يمتد إلى ما قد يخالط هواء المنجم من غاز قابل للالتهاب. فيحترق دفعة واحدة فينسف ما حوله. وتلك خاصة من خواص ما شابه الحديد والنحاس من المعادن أنها لسهولة سريان الحرارة فيها إذا لامست غازا ملتهبا أخذت من حرارته ما يكفى لتخفيض درجتها عن درجة الالتهاب. فاذا نفذ الغاز منها إلى خارجها نفذ غير ملتهب

حمل كل منا مصباحا وذهبنا لنزل المنجم فاذا المنزل اليه فوهتان كأنهما بئران متجاورتان منصوب عليهما قوائم متشابكة من الحديد عظيم حجمها وارتفاعها. تحمل فى أعلاها جهازا يتدلى منه سلسلة متينة. تحمل فى طرفيها صندوقين كل صندوق فى فوهة. والسلسلة من الطول بحيث اذا حاذى أحد الصندوقين وجه الأرض، مس الآخر أرض المنجم على عمق خمس وسبعين ومائتى ياردة. هذا هو الرافع الذى يرفع به الفحم الى سطح الأرض ولكنه لا كالذى نعرف عن الرافع. فانه على سماجته التى لا تليق بما يجعل له، عجيب فى نظامه وحركته. وهو يتحرك بالكهرباء: يدير العامل مفتاحا فى إحدى تلك القوائم، فيدق جرس صغير ثلاث دقات فى باطن الأرض وفى ظهرها ايذانا، وعندئذ يهوى أحد الصندوقين ويرتفع الآخر بسرعة ثلاثين ميلا فى الساعة. وكل منهما فى بدء هبوطه يدع سلسلة كان قد رفعها تقل حاجزا من خشب فيسد باب الفوهة. فاذا ما قارب الصندوق مقره فى صعوده رفع السلسلة فانفتح الباب

بدأنا النزول منتصف الساعة السابعة، فدخل منا عشرة صندوقا فوسعهم مع العامل واقفين متلاصقين. واذا فى أرض الصندوق قضيبان حديدان اذا بلغ الصندوق ارض المنجم كونا جزءا من السكة الحديدية الممتدة فيه، وعليها توقف عربات الفحم ترفع بها فيها الى سطح الارض. والهابط الى المنجم يشعر بما لعلك شعرت ببعضه اذا كنت هبطت راكبا بعض مصاعد الحوانيت التجارية أو المبانى الكبرى. يخيل إليه أن الرافع قد هوى من تحت قدميه، ويقوى هذا الشعور عنده كلما زادت سرعة الهبوط حتى اذا بدأت تتناقص فى النصف الآخر من المسافة وأحس حمل أرض الرافع لقدميه أكثر من قبل خيل اليه أنه صاعد وليس بصاعد. وفى صعوده يشعر بعكس ما شعر فى هبوطه. فلما تكامل عددنا داخل المنجم ذهبنا الى غرفة الملابس فخلع بعضنا فيها رداءه. ثم سرنا فى طرق

(١) كان رحمه الله مثلا للخلق الكريم والعلم الواسع والصلابة الجدية. بدأ حياته بكلية نوتنجهام صبيا من صبيان معاملها يخدمها ويتعلم فيها وانتهى بأن صار استاذ الطبيعة فيها وقد انتخب زميلا بالجمعية الملوكية

فيها بعض سعة سقوفها أقبية مبنية ، ونورها مصابيح كهربائية . نريد زيارة الجهاز الكهربائي الضخم الذي يجر عربات الفحم من مسافة لا تقل عن ميل . ولا نظن العربات تتحرك كما يتحرك الترام ؛ ولكن بحبل غليظ مشدود بها اذا دار الجهاز دارت اسطوانة كبيرة بسرعة كبيرة فالتف عليها الحبل فانجرت العربات . ثم ذهبنا فرأينا مرابط الخيل التي تجر العربات فيها وراء الميل ، فاذا هي ليست أسعد حالا من خيول جر الاثقال في مصر . وهي شر منها في أنها قائمة نائمة تحت الارض لا ترى الشمس يغذونها المنجم حتى تموت

ثم سرنا بعد ذلك ميلين في طرق تضيق حتى لا تكاد تتسع لشخصين يسيران جنباً لجنب ، كانت من قبل عروق الفحم في الأرض فنقبها العامل بصبره ومعوله ، نائما على بطنه ومستلقيا على ظهره ومائلا على جنبه ومنحنيا وقائما . وكلما نقب خطوات الى الارتفاع المرسوم جاء بالأخشاب الغليظة فجعلها سقفا يحمل طبقات الفحم أو الطين حتى لا تنهال : تحمله من جانبيه قوائم من مثله أقيمت عمودية على جانبي الطريق . ولم يخل سيرنا في تلك الطرقات من تعب ، فكثيراً ما كنا نسير فيها منحنين نحس السقف بأعيننا والأرض بأرجلنا : ولكنا كنا نتخذ من ذلك كله فكاهات نضحك لها . فمن كان يرانا عندئذ كان يرى أشباحا يحمل كل منها مصباحا . ولم يخل منظر المصابيح يتلو بعضها بعضا من بهجة في تلك الظلمة ؛ ثم كان يسمع أصواتا تتجاوب ، فلا يكاد القائد يقول — وكثيرا ما كان يقول : — رأسك والخشبة ! حتى يرفع بها صوته من خلفه ولا يزال الدفع يلقى بها الى فم كلما مر بالخشبة شخص حتى تبلغ آخر الصف . وقد تسمع بين ذلك هـذا يصيح : وادماغاه ! وذاك : واركبتاه ! أو تسمع سائلا يسأل وآخر يجيب . وأحيانا اذا استقام الطريق كانت ترتفع أصوات ببعض الغناء مختلطة معا ، فتجد له عندئذ ما يجد الجندي الذي أتعبه السير الموسيقى . وكنا نظن أننا ذاهبون لنرى القاطعات الكهربائية التي تقطع الفحم : فاذا بالقائد يقودنا كل تلك المسافة ليرينا الفحم أين هو ! فلما سألناه عن القاطعات قال هي في جهة أخرى لا نصل اليها من موقعنا ذلك الا عند منتصف الليل . فرجعنا أدراجنا نقول : متى نبلغ ؟ ولم نبلغه إلا بعد الثامنة . فكتب كل منا اسمه في دفتر الزائرين ثم صعدنا فزرنا المولد الكهربائي الذي يدير تلك الآلات كلها : فاذا آلات يحار فيها الفكر في غرفة عرضها عشرون خطوة وطولها خمس وعشرون ، ويكفي لتقدير عظم آلاتها أن التيار يتولد عن قوة محركة كهربائية قدرها ٢٥٠٠ فولت . ولعل ترام القاهرة لا تزيد القوة المحركة لتياره على خمسمائة .

والعامل في منجم الفحم يتقاضى أجرا كبيرا لما في عمله من الخطر والمشقة . وهو يحاسب على كل طن يقتطعه ، وقد يقتطع ما يؤجر عليه سبعة جنيهات في الأسبوع . وقد وجدنا أن المنجم مقسم الى مناطق صغيرة كل منطقة لها رمز من عدد أو حرف تعرف به ويعرف به العامل فيها وكلما ملأ عامل عربة كتب رمزه على كل قطعة ظاهرة من فحمها ليعرف أنها له فتضاف الى حسابه . والمنجم الذي زرناه كان يستخرج منه في اليوم في ذلك الحين مائة وألف طن من الفحم لقلة العمال . وقبل الحرب كان يستخرج منه حوالى خمسة آلاف طن في اليوم .

محمد احمد الغمراوي

المبــــارزة

للكاتب الروسي اسكندر بوشكين

كنا نعسكر في قرية روسية صغيرة ، وأنت تدرك بالطبع حياة الضباط وما تكون عليه ، نؤدي في الصباح التمرينات العسكرية ونتدرب على ركوب الخيل ، ثم نتناول طعام الغداء عند قائد الفرقة أو في المطعم اليهودي ، فاذا جاء الليل أخذنا نشرب الخمر ونلعب الورق ، ولم يكن لنا غير هذا الجانب الضئيل من التسلية ، لأن الفتيات الناضجات لم يكن يسمح لهن بالخروج . وكنا نعق الوقت معا حتى اذا اجتمعنا لم نجد بيننا فرداً لا يرتدي الملابس الرسمية .

ثم تعرفنا الى شخص من غير الجنود ، ومع أنه كان في الخامسة والثلاثين تقريبا كنا نعتبره أكبر من هذا بكثير ، وكنا نعتقد في حكمته وكثرة تجاربه ، ولقد أسرنا نحن الشبان بكرمه وقوة شخصيته وما فطر عليه من التهكم وعدم الاكتراث . وخيل الينا أن وراء هذا كله شيئا يكتمه ، وأن بين ضلوعه سراً يطويه . ولقد نبئنا أنه كان في فرقة الفرسان يشهد له الجميع بالتفوق والنشاط ، ثم استقال منها فجأة لسبب مجهول ، واعتكف في هذه القرية الصغيرة ؛ ومع قلة معاشه كنا نراه ينفق عن سعة ويفتح بيته لنا نحن الضباط ، فاذا جلسنا الى مائدته استطعنا أن نأكل ثلاثة أصناف من الطعام ، وأن نشرب الكثير من كؤوس الشمبانيا ! ولم نكن نعرف شيئا من شؤونه الخاصة ، غير أن الذي يعد له طعامه هو خادمه العجوز الذي كان في مطلع حياته جنديا ! ولم يجسر أحد على سؤاله عن حياته أو ماضيه .

وكانت له مكتبة حافلة بالكتب — معظمها خاص بالجندية وما

يتصل بها — يعيرها سروراً ولا يسأل عنها بعد ذلك ، كما أنه اذا استعار كتابا لم يفكر في رده الى صاحبه .. فاذا دخلت غرفته وجدت جدرانها مغطاة بظروف الرصاص فيكسبها ذلك شكل عش الزنبور : ولم يكن في داره من معالم الترف غير مجموعة ثمينة من البنادق والاسلحة .

وهو يرتدي في الغالب سترة قرمزية . فاذا نظرت الى ملامح وجهه وجدته روسيا في الصميم ، مع انه يحمل اسما أجنبيا . ولقد كان ماهراً في الرماية الى حد أنه يصوب بندقيته الى خوذة الواحد منا فيصيبها دون أن ينال صاحبها بسوء .. وكثيراً ما تحدثنا عن المبارزة ، ولكن « سيلفيو » — ولنسمه بهذا الاسم — لم يكن يشترك معنا في الحديث ، فاذا ما سأله أحدنا عما إذا كان قد بارز في حياته ، رد بالايجاب ولم يزد ، وخيل الينا أنه يكره هذا الموضوع لانه يثير ذكرى حادثة معينة قتل فيها فرد معين من ضحاياه العديدين .

وفي ذات يوم كان يتناول طعام الغداء في منزل « سيلفيو » ثمانية أو تسعة من الضباط ، وكنت أحدهم ، واذكر أننا شربنا وأسرفنا في الشراب ، فلما انتهينا من طعامنا رجونا من مضيفنا أن يكون أمين الصندوق في لعب الميسر ، ولكنه رفض ، لانه قلما يلعب ، فلما أصررنا طلب لنا الورق وجلسنا الى جانبه على شكل دائرة أخذنا نلعب .

لم يتحدث الرجل أثناء اللعب ولم يجره الى المعارضة أو الشرح ، وكان إذا أخطأ أحدنا أعطاه ماله أو حجز ما عليه لنفسه . وكنا جميعا نعرف طريقته .. وحدث أثناء اللعب أن ضاعف أحدنا — وكان ضابطا حديث العهد بمعسكرنا — رهانه على ورقة بالذات دون قصد منه لانشغاله وذهوله ، فما كان من سيلفيو إلا أن تناول قطعة الطباشير وكتب المبلغ المطلوب فقط .. عارض الضابط وأراد أن يصحح خطأه ، ولكن سيلفيو لم يعره اهتمامه ، وظل يدير اللعب كأن لم يحدث شيء .. وهنا تناول الضابط الطلاسة ومحا الارقام ، فأجاب مضيفنا على ذلك بأن أعاد كتابتها في هدوئه المعهود . كان الضابط متأثراً بالشراب وباللعب وبضحكات زملائه الساخرة فظن أنه أهين ، وتناول شمعدانا رمى به وجه سيلفيو ولكنه انحنى قليلا الى الامام فأخطأته الضربة . فدهشنا جميعا وانتظرنا ماذا يكون بعدها .

وقف مضيفنا شاحبا ، وسدد الى الضابط نظرات دونها نظرات النسور وقال له « لتغادر المكان يا سيدي ولتشكر الله على أن ما حدث كان في بيتي »

ولم نشك لحظة في نتيجة هذا الحادث وما سوف يسفر عنه من قتل زميلنا الجديد ، ونظرنا جميعا اليه وهو يغادر المنزل في وجوم معلنا استعداده لمقابلة سيلفيو في الوقت الذي يراه . وطبيعي ألا يستمر اللعب بعد ذلك كثيراً لاننا انصرفنا واحدا بعد واحد لما رأيناه على مضيفنا من علائم الذهول والانفعال . ولم نكد نعود الى معسكرنا حتى أخذنا نتحدث فيما سيؤول اليه هذا الحادث الفريد

وفي صبيحة اليوم التالي عندما كنا نقوم بتمريننا العادي على ركوب الخيل تساءلنا هل مات الضابط أم لا يزال على قيد الحياة ؟ ولكنه ظهر بيننا ، فعجبنا للأمر وأمطرناه وابلامن الاسئلة ، فأجابنا أنه لم يتلق دعوة ما الى المبارزة من سيلفيو . وأسرعنا الى زيارة الرجل في منزله فوجدناه يتدرب على اطلاق الرصاص وقد ألصق بالباب غرضا جعل يصوب الطلقات اليه تباعا فلا يخطئه . فلما رآنا تلقانا كعادته ، ولم يذكر لنا شيئا عن حادث الليلة الماضية .. ومرت ثلاثة أيام والضابط لا يزال على قيد الحياة ، ونحن نتساءل (ألا يتبارز سيلفيو ؟) أجل أن يتبارز الرجل ! بل راح يشرح الاسباب العرجاء التي لم تقنع أحدا منا

وهذا الرفض وذلك الاحتمال من جانب الرجل أساء الى سمعته بيننا نحن الشبان ، لأن الشباب لا يغتفر الجبن ، ويعتقد أن الشجاعة خير الصفات التي يجب أن يتصف بها المرء في جهاد الحياة ، وأن الشجاع يستبيح لنفسه كل شيء : يحلل الحرام ويحرم الحلال . ولكن سرعان ما نسينا كل شيء بعد مدة ، وسرعان ما استفاد سيلفيو مكانته القديمة بيننا .

وفي الحق أن رأيي في هذا الرجل لم يعد إلى ما كان عليه ، لأنني رومانتيكي في خيالي وتفكيري ، ولقد أحببت هذا الرجل أكثر من غيري ، مع أنه كان لغزاً للجميع . وكنت أصوره دائما بطلا لدرامة رائعة . وكنت واثقا من أنه يحبني ، فاذا انفرد في ترك تهكمه اللاذع وراح يتحدث معي في شتى الموضوعات ، ولكني بعد الحادث المعروف لم أكن أطمئن اليه ولا أرتاح إلى حديثه ، لاعتقادي أنه أهين ولم يغسل إهانته بالدم ، وكنت أتحاشى مقابلته أو النظر اليه

وكان الرجل من الذكاء ونفاذ البصيرة بحيث أدرك تماما سبب تغيري ، وخيل الى مرتين أنه يريد أن يتحدث الي في هذا الموضوع ولكن تحاشيته ولم يصر من جانبه على الحديث

(يتبع) عبد الحميد يونس



فتح العرب لمصر

تأليف الدكتور ألفرد . ج . بتلر

وتعريب محمد فريد أبو حديد

للأستاذ عبد الحميد العبادى

أستاذ التاريخ بكلية الآداب

سمعت أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد بك يقول مرة ما معناه : أنا الآن فى دور النقل والتعريب من حياتنا العلمية . وهو قول لاغبار عليه ، فان زمن الاقتصار على تراثنا العلمى والأدبى القديم قد انقضى منذ عهد بعيد ، وزمن الابتكار فى العلم والأدب لم يأت بعد ، وينبغى أن يتقدمه زمن نتوفر فيه على نقل أصول العلوم والفنون والآداب الغربية الى لغتنا العربية إقتداء بما فعل السلف الصالح فى صدر الدولة العباسية .

انا بهذا التوفر نبث فى حياتنا العلمية روحا جديدا ، ونكسبها مادة جديدة وأسلوبا فى البحث والعرض العلمى جديدا . ونكون قد مهدنا للحياة العلمية المستقلة . وأعددنا لها أساسا قويا راسخا لايخشى عليه من تطاول البنيان ومرور الزمان ، ونكون قد أدينا واجب العلم والوطن والانسانية جميعا .

لكن الترجمة الصحيحة عبء ثقيل مضن يقتضى كثيرا من الجهد والتضحية . فهى من ناحية المترجم تتطلب غزارة علم وأدب ، وأنكارا شديدا للذات ، يستعذب معه المترجم أن يكون أسيرا للمؤلف الذى ينقله . وقليل من الناس من يصبر على مثل هذا العناء . ثم هى تقتضى من ناحية الناشر ، وبخاصة فى بلدنا هذا ، أن يوطن نفسه على الخسارة المادية نصيبه مما ينشر . فاذا استطاع أن يخرج من الامر كفافا لا له ولا عليه فحسبه ذلك .

والناشر بعد تاجر يقيس قيمة الكتب بالفائدة المادية المرجوة منها ، فاذا يحمله على أن يعرض ماله للضياع ؟

من أجل ذلك كسدت سوق الترجمة فى بلدنا . وتأثرت حياتنا الأدبية بهذا الكساد تأثرا شديدا ، حتى أصبحت لاشرقية ولا غربية . ولاقديمة ولاحديثة . ولكن الحمد لله . فقد أخذت هذه الحال تؤذن بالتحول والزوال . وآية ذلك ماتسمعه عن التفكير فى وضع قاموس عربى جديد يجمع شتات اللغة التى أصبحت الى حد بعيد سماعية غير مدونة . ومن آيته أيضا ماترجم فى السنوات الأخيرة من غرر أدب الغرب وعلمه . نذكر من هذه الغرر على سبيل المثال : كتاب الجمهورية لأفلاطون . وكتاب الأخلاق . وكتاب الكون والفساد . ونظام الأثينيين لأرسطو ، وآلام فرتر لجوته . وفاوست له أيضا . والشاهنامة للفردوسى . وأصل الانواع لدارون . ثم كتاب فتح العرب لمصر . وهو الذى سقنا هذه المقدمة تمهيدا للتعريف به أصلا وترجمة .

ألف كتاب (فتح العرب لمصر) منذ ثلاثين سنة عالم انجليزى هو الدكتور ألفرد . ج . بتلر . ونقله الى العربية منذ عام صديقنا الاستاذ محمد فريد أبو حديد . ثم نشرته فى هذه الايام لجنتنا المباركة لجنة التأليف والترجمة والنشر . والكتاب يقع فى قرابة ستمائة صفحة مكسورة على ثلاثين فصلا وبضعة ملحقات . فى الفصول الاربعة الاولى يعرض المؤلف الحال السياسية العامة للدولة الرومانية فى أوائل القرن السابع الميلادى ويتكلم عن الثورة التى انتهت بأن أصبح هرقل عاهل الدولة المذكورة . وفى الفصل الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع يتكلم عن غزو الفرس الشام ومصر . فنهضة هرقل واسترداده الاقليمين المذكورين وعقده مع الفرس صلحا أعاد الى الروم شرفهم العسكرى . فاتخاذ الادبية للاسكندرية خاصة لذلك العهد . وفى الفصل العاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر يتكلم عن ظهور الاسلام . وفتح العرب الشام ومصر ، واضطهاد قيرس البطريرك الملكانى للاقباط فى السنوات العشر السابقة على الفتح . ومن الفصل الرابع عشر إلى الثالث والعشرين يفصل المؤلف الكلام عن حوادث الفتح العربى لمصر . فيتكلم عن زحف عمرو بن العاص على مصر وبلوغه مدينة مصر ، فغزوة الفيوم ، فواقعة عين شمس . فحصار حصن بابليون

وأخذه . فالزحف على الاسكندرية والاستيلاء عليها . فأخذ المدن الساحلية الشمالية . فانهيار السيادة الرومانية على مصر . ومن الفصل الرابع والعشرين الى الثلاثين يتكلم المؤلف كلاما تاما موضوعه حال الاسكندرية وقت الفتح . ومكتبتها المشهورة . وحريق هذه المكتبة المنسوب الى عمرو . وغزو عمرو لبرقة وطرابلس . والنظام الادارى الاسلامى الذى وضع لمصر عقب الفتح . ثم يتبع المؤلف هذه الفصول بملحقات حقق فيها . بصفة خاصة . شخصية المقوقس . والترتيب الزمنى لحوادث الفتح العربى . والكتاب الى جانب ذلك كله مزود بخرائط ورسوم تعين على فهم موضوعه .

من هذا العرض العام يتبين القارئ أن المؤلف قد أحاط بموضوع الفتح العربى لمصر أتم الإحاطة ، واستوعب وقائعه كل الاستيعاب . والحق أن الدكتور بتلر قد جلا موضوعا من أوعر موضوعات التاريخ الاسلامى ، وحل كثيرا من الغازه : أوضح شخصية المقوقس وكانت غامضة ، ورتب حوادث الفتح ترتيبا أدنى الى الصحة منه فى أى مصدر قديم ، وأتى بالقول الفصل فى حريق مكتبة الاسكندرية ، وبين وجه الخلاف القديم فى فتح مصر ، أصلحا كان أم عنوة ؟ على أن الكتاب يؤخذ بنقص جوهرى واحد . ذلك أن المؤلف عنى بالجانب السياسى والدينى فقط من حال مصر قبيل الفتح وأغفل شئونها الادارية والاقتصادية على ما كان لها من أثر قوى فى سهولة انتقال مصر من حكم الروم الى حكم العرب . ولقد ظهر فى هذا الموضوع فى العشرين سنة الاخيرة بحوث قيمة كنا نود لو أن الكتاب طبع طبعة ثانية تضمن نتائجها من هذه البحوث : «النظام العسكرى لمصر البيزنطية» لجان ماسبرو . و« الادارة المدنية لمصر البيزنطية » لجرمين روبارد .

ثم اننا لا نوافق المؤلف على تصويره لغـــارة عمرو على الفيوم ، فهو يرى أن عمرا عند ما بلغ رأس الدلتا ورأى قلة من معه من الجند ، وحرج موقفه بين جنود الروم جنوبا وشمالا ، أرسل الى الخليفة عمر بن الخطاب يستمده ، ورأى فى الوقت نفسه أن يشغل جنده ويستنقذهم من الخطر ريثما يصل المدد ، فتكلف عبور النيل الى شاطئه الغربى ، وأغار على الفيوم ثم عاد فعبر النيل ثانية ، فوجد المدد قد قدم من المدينة . لا شك أن هذه طريقة غريبة جدا فى الخلاص من المواقف العسكرية الحرجة . ثم هى لا تأتلف بحال مع ما عرف عن عمرو من شدة الدهاء وبعد المكيدة . يضاف الى ذلك أن المصادر العربية من حيث هذه الغزوة نوعان : نوع لا يعرفها بالمرة . ونوع يعرفها ، ولكنه يوردها على صورة تجعلها أقرب الى المعقول من الصورة المذكورة : ومع ذلك لم يعتمد عليها المؤلف واكتفى بمتابعة يوحنا النقيوسى بحجة أنه أقدم عهدا من كل المصادر العربية . ولكن القدم وحده لا يكون دائما دليلا على صحة المصادر التاريخية . كذلك يؤخذ على المؤلف حكمه فى الفصل الحادى عشر بأن غزوة تبوك المشهورة كانت فشلا ، لأنها لم تؤد الى ما كان الرسول يرمى اليه بها من مصادمة الروم . والحق أنها أدت الى ما كان النبى ﷺ يرمى اليه من مد سلطانه السياسى على شمال الحجاز . بقيت ملاحظة يسيرة : لقد توهم المؤلف ان مسيلمة المتنبى ظهر باليمن (ص ١٣١) والصحيح انه ظهر باليمامة .

ومع ذلك فهذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية ، وحسب القارئ ان يعلم ان الدكتور بتلر قد أقام فى كتابه ، تاريخ الفتح العربى لمصر على أساس علمى متين ، وانه الى الآن لم يظهر فى ذلك الموضوع كتاب آخر يدانيه ، فضلا عن أن يفوقه

* *

أما الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر فأحب قبل كل شىء أن أهنئ صديقى فريدا على توفيقه فيها أخلص التهنئة . فقد جاءت صورة صادقة للاصل مطابقة له فقرة فقرة وجملة جملة . هذا مع سهولة العبارة وسلاستها ووضوحها ، مما يشهد للاستاذ فريد بالبراعة فى صناعة الترجمة . ولكن ليت شعرى اى مترجم ، ولو كان الاستاذ فريد نفسه ، يترجم زهاء الستمائة صفحة ثم لا يهفو قلمه ولا ينحرف عن الاصل الذى ينقل عنه يمنة أو يسرة ؟ على هذا الاعتبار أهدى الى الاستاذ فريد هذه الملاحظات اليسيرة .

جاء فى صفحة ٢٥ هذه العبارة (النفر اليسير) وصوابها (النزر) بالزاى المعجمة . وفى صفحة ٢٧ عرب اسم المستشرق المشهور De goeje بـ (دى جويجة) وصوابه (ده غويه) ووردت فى صفحة ٢٧ أيضا كلمة (المونوفيسية) وأحسن منها ان يقال (المذهب اليعقوبى) . وجاء فى صفحة ١٢٣ (هزيمة تبوك) بدلا من (فشل غزوة تبوك) وهو المقابل للاصل . وفى صفحة ٨٣ ترجمت Theology (بالفقه) وصوابها (اللاهوت) ، وجاء فى صفحة ٢١٨ (تسور الزبير الى الحصن) والصواب ان يحذف حرف الجر . وفى صفحة ٢٢٨ ترجمت Drawbridges بـ (قناطر) وأصح من ذلك (جســـور) لان العرف جرى بأطلاق اللفظ الاول على البناء الثابت الذى يعقد فوق الانهار وهو غير المراد من اللفظ الانجليزى . وجاء فى صفحة ٢٥٥ (وكانت مسلحة المدينة) بدلا من (وكانت حامية المدينة) . وفى صفحة ٤٠٦ (وقال عنه النواوى) وصوابه (النووى) بدون ألف المد .

على ان هذه الملاحظات ايضا لا تضر الترجمة شيئا . واذا كان الكتاب مثالا يحتذى من حيث دقة البحث العلمى ، فترجمته العربية مثال ينسج على منواله من حيث أمانة النقل وصحة التعريب ؟

ضحى الاســـلام

ما كان لى أن أقف مع الذين يتحدثون عن الأستاذ المحقق «أحمد أمين» ولا أن أساهم في الكلام عن علمه ومؤلفاته. لأن ذلك شأن لا يضطلع به إلا كبار أهل العلم والفضل ليكون لكلامهم من القيمة ما يكافىء مكانة هذا العالم الكبير. ولكني وأنا أطلب العلم والأدب وأدرسهما منذ ربع قرن (وما زلت مجدا في سبيل) أجد لزاماً على وقد قرأت كتابه الممتع «ضحى الاسلام» أن أبين في كلمة صغيرة لأخواني طلاب الأدب والعلم ومن يعنون بدراستهما مقدار ما أحدث من هذا الكتاب ومدى انتفاعي به.

أخذت هذا الكتاب يوم صدوره أخذ المشوق اللهفان. لأنى كنت أرتقب صدوره بعد أن بزغ (فجره) من زمن غير قليل، ولم ألبث أن عكفت على قراءته عكوفاً لم أدع معه النفس أن تتطلع إلى شيء غيره من متاع الحياة حتى انتهيت منه.

وفي الحق أني لا أستطيع أن أصف وصفاً دقيقاً مقدار ما استمتعت به من هذا الكتاب. ولا أن أصور تصويراً صادقاً مبلغ ما فيه من علم وبحث. ولكني لو أردت أن أصف أمرى بعد أن فرغت من قراءته في عبارة صغيرة لقلت: «انى على كثير ما قرأت من كتب العلم والأدب لم أفد من كتاب مثل ما أفدت من هذا الكتاب. فقد كشف عن الحياة العقلية الاسلامية في القرن الثاني للهجرة ما لم يكن معروفاً مثله لأحد: فظهرت أشياء لم تكن تعرف من قبل. ووضحت أمور كانت غامضة أو مبهمة. وصححت مسائل كان الناس يعلمون منها غير الذى حققه ببحوثه العميقة عالمنا الجليل.

ولقد شهدت في هذا الكتاب الممتع كيف سارت حياة الاسلام في الحقبة التي أرخت فيه. وتنورت على هدى تحقيقه ما أثر في هذه الحياة من مختلف النواحي وما تأثرت به هذه النواحي. حتى لكنت أحسب وأنا أدرس هذا الكتاب أن الحياة العقلية الاسلامية قد صورت تصويراً صادقاً على لوحة السينما بحيث لا يخفى منها شيء. ولا يحتجب منها وجه.

وإنى لأقرر في صراحة أنى بعد أن قرأت كتابي (فجر الاسلام وضحاه) قد تغير رأيي في كثير من أمور ديننا الحنيف كنت فهمتها من بعض كتب العلم. وأصبحت بذلك مضطراً إلى أن أعود إلى هذه الكتب لأقرأها ثانية حتى أفهم ما فيها على حقيقته.

هذا بعض ما أخذته من كتاب «ضحى الاسلام» بقدر (فرجتي وفهمى) أنشره وأؤذن بصوت الحق أن هذا الكتاب الفريد تجب دراسته على الأديب والعالم والديني والمؤرخ وجوباً جزى الله عالمنا الجليل لقاء ما ناله من تعب وتحقيق في سبيل العلم خير الجزاء. وأعانه على اتمام ما انتدب له من خدمة العلم انه سميع الدعاء.

المنصورة محمود أبو ريه

الهيـــام

لعبد الرحيم مصطفى قليلات

هذا الكتاب ديوان شعر. وعنوانه (الهيام) قد يخدع القارىء لأول وهلة. فيحسب أن الديوان أكثره أو كله تشبيب. والحقيقة أن العنوان مقتبس من الآية (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) وقد هام هذا الشاعر في أودية كثيرة. والكتاب الذى بين أيدينا هو ثمرة هذا (الهيام). وأشعار الكتاب مقسمة الى خمسة أبواب: الأول: في الدين والاخلاق: الثاني: في الثقافة والاجتماع: الثالث: في تهذيب المرأة وعجبها: والرابع: في الفكاهة: والخامس: وهو أطول الابواب جميعا. في الاناشيد. ومنه يتبين للقارىء أن المؤلف لم يدع هيأة من الهيئات في بلده الا علمها كيف تتغنى بأعمالها وشئونها. وكثير من هذه الأناشيد يصحبه توقيعه مكتوبا بالعلامات الموسيقية. وسيسر المصريون اذ يرون هذا الشاعر السورى الفاضل قد ختم الكتاب بنشيد جميل (دمعة على سعد) ومعه لحنه، ولم يتح لنا بعد أن نسمع توقيعه.

وقد أعجبنا في الكتاب كله تلك الروح الدينية والوطنية والخلقية العالية التي يحسها القارىء في كل صفحة من صفحاته. وقد عالج المؤلف عدة مواضع من الاهمية بمكان. ولكن يخيل الينا أن الشاعر يكتب بسرعة وبكثرة هائلة لا تسمح له بتنقيح شعره واختيار عباراته وألفاظه. وليس من شك في أنه لو تأنى وتريث لأتى بشعر جليل. وهو أحسن ما يكون حين يقص علينا قصة. وسيسر القارىء من القسم الفكاهى. وقد أعجبنا منه بنوع خاص قطعة الدبعة (ليلة القدر). ومن أجل هذه القطعة وحدها يستحق الكتاب أن يقتنى؟

م. ع. م.